

محاضرات

مقرر : مناهج المفسرين

د. أحمد دسوقي

المستوى الرابع _ دراسات اسلاميه

2016 - 2015

المحاضرة الأولى

معنى التفسير والتأويل والفرق بينهما:

التفسير في اللغة: التفسير هو الإيضاح والتبيين، ومنه قوله تعالى في سورة الفرقان آية [٣٣]: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ .. أى بياناً وتفصيلاً، وهو مأخوذ من الفسر وهو الإبانة والكشف، قال في القاموس: "الفسر: الإبانة وكشف المغطى كالتفسير، والفعل: كضرب ونصر".

وقال في لسان العرب: "الفسر: البيان فسّر الشيء يُفسّره - بالكسر ويُفسّره - بالضم فسراً. وفسّره أبانه. والتفسير مثله ... ثم قال: الفسر كشف المغطى، والتفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل ..."

وقال أبو حيان في البحر المحیط: "... ويُطلق التفسير أيضاً على التعرية للانطلاق، قال ثعلب: تقول: فسرتُ الفرس: عرّيته لينطلق في حصره، وهو راجع لمعنى الكشف، فكأنه كشف ظهره لهذا الذي يريده منه من الجرى".

ومن هذا يتبين لنا أن التفسير يُستعمل لغة في الكشف الحسّي، وفي الكشف عن المعاني المعقولة، واستعماله في الثاني أكثر من استعماله في الأول .

ويرى بعض آخر منهم: أن التفسير من قبيل المسائل الجزئية أو القواعد الكلية، أو الملكات الناشئة من مزاولة القواعد، فيتكلف له التعريف، فيذكر في ذلك علوماً أخرى يُحتاج إليها في فهم القرآن، كاللغة، والصرف، والنحو، والقراءات ... وغير ذلك.

وإذا نحن تتبعنا أقوال العلماء الذين تكلفوا الحد للتفسير، وجدناهم قد عرّفوه بتعاريف كثيرة، يمكن إرجاعها كلها إلى واحد منها، فهي وإن كانت مختلفة من جهة اللفظ، إلا أنها متحدة من جهة المعنى وما تهدف إليه.

قد عرّفه أبو حيان في البحر المحیط بأنه: "علم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تُحمل عليها حالة التركيب، وتتمت لذلك".

التفسير في الاصطلاح: يرى بعض العلماء: أن التفسير ليس من العلوم التي يُتكلف لها حد، لأنه ليس قواعد أو ملكات ناشئة من مزاولة القواعد كغيره من العلوم التي أمكن لها أن تشبه العلوم العقلية، ويكتفى في إيضاح التفسير بأنه بيان كلام الله، أو أنه المبيّن لألفاظ القرآن ومفهوماتها.

ثم خرج التعريف فقال: "فقولنا: "علم"، هو جنس يشمل سائر العلوم، وقولنا: "يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن"، هذا هو علم القراءات، وقولنا: "ومدلولاتها" أي مدلولات تلك الألفاظ، وهذا هو علم اللغة الذي يُحتاج إليه في هذا العلم، وقولنا: "وأحكامها الإفرادية والتركيبية"، هذا يشمل علم التصريف، وعلم الإعراب، وعلم البيان، وعلم البديع، وقولنا: "ومعانيها التي تُحمل عليها حالة التركيب"، يشمل ما دلّته عليه بالحقيقة، وما دلّته عليه بالمجاز، فإن التركيب قد يقتضى بظاهره شيئاً ويصد عن الحمل على الظاهر صاد فيحتاج لأجل ذلك أن يُحمل على الظاهر وهو المجاز، وقولنا: "وتتمت لذلك"، هو معرفة النسخ وسبب النزول، وقصة توضح بعض ما انبهم في القرآن، ونحو ذلك".

وعرّفه الزركشي بأنه: "علم يفهم به كتاب الله المُنزّل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه".

وعرّفه بعضهم بأنه: "علم يُبحث فيه عن أحوال القرآن المجيد، من حيث دلّته على مراد الله تعالى، بقدر الطاقة البشرية".

.. والناظر لأول وهلة في هذين التعريفين الأخيرين، يظن أن علم القراءات وعلم الرسم لا يدخلان في علم التفسير، والحق أنهما داخلان فيه، وذلك لأن المعنى يختلف باختلاف القراءتين أو القراءات، كقراءة: {وَإِذَا رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا} [البقرة: ٢٢٢]- بضم الميم وإسكان اللام، فإن معناها مغاير لقراءة مَنْ قرأ: "وَمَلِكًا كَبِيرًا" - بفتح الميم وكسر اللام. وكقراءة {حَتَّى يَطْهَرْنَ} - بالتسكين، فإن معناها مغاير لقراءة مَنْ قرأ: "يَطْهَرْنَ" - بالتشديد، كما أن المعنى يختلف أيضاً باختلاف الرسم القرآني في المصحف، فمثلاً قوله تعالى: {أَمَّن يَمِثِّي سَوِيًّا} [الملك: ٢٢]- بوصل "أَمَّن"، يغير في المعنى: {أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا} [النساء: ١٠٩]- بفصلها، فإن المفصلة تفيد معنى "بل" دون الموصولة.

وعرّفه بعضهم بأنه: "علم نزول الآيات، وشئونها، وأقاصيصها، والأسباب النازلة فيها، ثم ترتيب مكيتها ومدنيها، ومُحكّمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها، ومُطلقها ومُقيدها، ومُجملها ومُفسرّها، وحلالها وحرّامها، ووعدها ووعيدها، وأمرها ونهيها، وعبرها وأمّثالها".

هذه التعاريف الأربعة تتفق كلها على أن علم التفسير علم يبحث عن مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية، فهو شامل لكل ما يتوقف عليه فهم المعنى، وبيان المراد.

التأويل في اللغة: التأويل: مأخوذ من الأول وهو الرجوع، قال في القاموس: "أل إليه أولاً ومآلاً رجع، وعنه: ارتد ... ثم قال: وأول الكلام تأويلاً وتأوله: دبّره وقدره وفسّره، والتأويل: عبارة الرؤيا".

وقال في لسان العرب: "الأول: الرجوع، أل الشيء يؤول أولاً ومآلاً رجع، وأول الشيء: رجعه، وألت عن الشيء: ارتدّدت، وفي الحديث: "من صام الدهر فلا صام ولا آل" أي: ولا رجع إلى خير ... ثم قال: وأول الكلام وتأوله: دبّره وقدره. وأوله وتأوله: فسّره ... الخ".

وعلى هذا فيكون التأويل مأخوذاً من الأول بمعنى الرجوع، إنما هو باعتبار أحد معانيه اللغوية، فكأن المؤول أرجع الكلام إلى ما يحتمله من المعاني.

وقيل: التأويل مأخوذ من الإيالة وهي السياسة، فكأن المؤول يسوس الكلام ويضمه في موضعه - قال الزمخشري في أساس البلاغة: "أل الرعية يؤولها إيالة حسنة، وهو حسن الإيالة، وائتالها، وهو مؤتال لقومه مقتل عليهم، أي سائس محتكم".

والناظر في القرآن الكريم يجد أن لفظ التأويل قد ورد في كثير من آياته على معان مختلفة، فمن ذلك قوله تعالى في سورة آل عمران آية [٧]: {فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ} .. فهو في هذه الآية بمعن التفسير والتعيين. وقوله في سورة النساء آية [٥٩]: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا

الأعراف آية [٥٣]: {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ} .. وقوله في سورة يونس آية [٣٩]: {بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ} .. فهو في الآيتين بمعنى وقوع المخبر به. وقوله في سورة يوسف آية [٦]: {وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ} .. وقوله فيها أيضاً آية [٣٧]: {قَالَ لَا يَا بُنَيَّ كُفَّ عَنَّا طِعَامًا تَرَزَقْنَاكَ إِلَّا نَبَأْتُكَ مَا بِنَأْوِيلِهِ} .. وقوله في آية [٤٤] منها: {وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ} .. وقوله في آية [٤٥] منها: {أَنَا أَنْبَأُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ} .. وقوله في آية [١٠٠] منها: {هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ} .. فالمراد به في كل هذه الآيات نفس مدلول الرؤيا. وقوله في سورة الكهف آية: [٧٨]: {سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا} ..

وقوله أيضاً في آية [٨٢]: {ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا} .. فمراده بالتأويل هنا تأويل الأعمال التي أتى بها الخضر من خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار، وبيان السبب الحامل عليها، وليس المراد منه تأويل الأقوال.

التأويل في الاصطلاح:

١- التأويل عند السلف: التأويل عند السلف له معنيان:

أحدهما: تفسير الكلام وبيان معناه، سواء أوافق ظاهره أو خالفه، فيكون التأويل والتفسير على هذا مترادفين، وهذا هو ما عناه مجاهد من قوله: "إن العلماء يعلمون تأويله" يعنى القرآن، وما يعنيه ابن جرير الطبرى بقوله فى تفسيره: "القول فى تأويل قوله تعالى كذا وكذا" وبقوله: "اختلف أهل التأويل فى هذه الآية" ... ونحو ذلك، فإن مراده التفسير.

ثانيهما: هو نفس المراد بالكلام، فإن كان الكلام طلباً كان تأويله نفس الفعل المطلوب، وإن كان خبراً، كان تأويله نفس الشئ المخبر به، وبين هذا المعنى والذى قبله فرق ظاهر، فالذى قبله يكون التأويل فيه من باب العلم والكلام، كالتفسير، والشرح، والإيضاح، ويكون وجود التأويل فى القلب، واللسان، وله الوجود ذهنى واللفظى والرسمى، وأما هذا فالتأويل فيه نفس الأمور الموجودة فى الخارج، سواء أكانت ماضية أم مستقبلية، فإذا قيل: طلعت الشمس، فتأويل هذا هو نفس طلوعها، وهذا فى نظر ابن تيمية هو لغة القرآن التى نزل بها، وعلى هذا فيمكن إرجاع كل ما جاء فى القرآن من لفظ التأويل إلى هذا المعنى الثانى.

٢- التأويل عند المتأخرين من المتفهمة، والمتكلمة، والمحدثه والمتصوفة:

التأويل عند هؤلاء جميعاً: هو صرف اللفظ عن المعنى الراجع إلى المعنى المرجوح لدليل يقتزن به، وهذا هو التأويل الذى يتكلمون عليه فى أصول الفقه ومسائل الخلاف. فإذا قال أحد منهم: هذا الحديث - أو هذا النص - مؤول أو محمول على كذا. قال الآخر: هذا نوع تأويل والتأويل يحتاج إلى دليل. وعلى هذا فالتأويل مطالب بأمرين:

الأمر الأول: أن يبيّن احتمال اللفظ للمعنى الذى حمله عليه وأدعى أنه المراد.

الأمر الثانى: أن يبيّن الدليل الذى أوجب صرف اللفظ عن معناه الراجع إلى معناه المرجوح، وإلا كان تأويلاً فاسداً، أو تلاعباً بالنصوص.

قال فى جمع الجوامع وشرحه: "التأويل حمل الظاهر على المحتمل المرجوح، فإن حُمل عليه لدليل فصحيح، أو لما يُظن دليلاً فى الواقع ففاسد، أو لا شئ فلعب لا تأويل".

الفرق بين التفسير والتأويل

* الفرق بين التفسير والتأويل والنسبة بينهما:

اختلف العلماء فى بيان الفرق بين التفسير والتأويل، وفى تحديد النسبة بينهما اختلافاً نتجت عنه أقوال كثيرة، وكان التفرقة بين التفسير والتأويل أمر معضل استعصى حله على كثير من الناس إلا من سعى بين يديه شعاع من نور الهداية والتوفيق، ولهذا بالغ ابن حبيب النيسابورى فقال: "نبغ فى زماننا مفسرون لو سئلوا عن الفرق بين التفسير والتأويل ما اهدتوا إليه". وليس بعيداً أن يكون منشأ هذا الخلاف، هو ما ذهب إليه الأستاذ أمين الخولى حيث يقول: "وأحسب أن منشأ هذا كله، هو استعمال القرآن لكلمة التأويل، ثم ذهب الأصوليين إلى اصطلاح خاص فيها، مع شيوع الكلمة على ألسنة المتكلمين من أصحاب المقالات والمذاهب".

وهذه هى أقوال العلماء أبسطها بين يدى القارئ ليقف على مبلغ هذا الاختلاف، وليخلص هو برأى فى المسألة يوافق ذوقه العلمى ويرضيه.

١ - قال أبو عبيدة وطائفة معه: "التفسير والتأويل بمعنى واحد" فهما مترادفان. وهذا هو.

٢ - قال الراغب الأصفهانى: "التفسير أعم من التأويل، وأكثر ما يُستعمل التفسير فى الألفاظ، والتأويل فى المعانى، كتأويل الرؤيا. والتأويل يُستعمل أكثره فى الكتب الإلهية. والتفسير يستعمل فيها وفى غيرها. والتفسير أكثره يستعمل فى مفردات الألفاظ. والتأويل أكثره يستعمل فى الجمل، فالتفسير إما أن يُستعمل فى غريب الألفاظ كـ "البحيرة والسائبة

والوصيلة" أو فى تبين المراد وشرحه كقوله تعالى فى الآية [٤٣] من سورة البقرة: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ} .. وإما فى كلام مضمن بقصة لا يمكن تصوره إلا بمعرفتها نحو قوله تعالى فى الآية [٣٧] من سورة التوبة: {إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ} .. وقوله تعالى فى الآية [١٨٩] من سورة البقرة: {وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا} .

وأما التأويل: فإنه يُستعمل مرة عاماً، ومرة خاصاً، نحو "الكفر" المستعمل تارة فى الجحود المطلق، وتارة فى جحود البارى خاصة. و "الإيمان" المستعمل فى التصديق المطلق تارة، وفى تصديق دين الحق تارة، وإما فى لفظ مشترك بين معانٍ مختلفة، نحو لفظ "وجد" المستعمل فى الجد والوجد والوجود".

٣ - قال الماتوردى: "التفسير: القطع على أن المراد من اللفظ هذا، والشهادة على الله أنه عنى باللفظ هذا، فإن قام دليل مقطوع به فصحيح، وإلا فتفسير بالرأى، وهو المنهى عنه، والتأويل ترجيح أحد المحتملات بدون القطع والشهادة على الله"، وعلى هذا فالنسبة بينهما التباين.

٤- قال أبو طالب الثعلبى: "التفسير بيان وضع اللفظ إما حقيقة أو مجازاً، كتفسير "الصراط" بالطريق، و "الصيّب" بالمطر. والتأويل تفسير باطن اللفظ، مأخوذ من الأول، وهو الرجوع لعاقبة الأمر. فالتأويل إخبار عن حقيقة المراد، والتفسير إخبار عن دليل المراد، لأن اللفظ يكشف عن المراد، والكاشف دليل، مثله قوله تعالى فى الآية [١٤] من سورة الفجر: {إِنَّ رَبَّكَ لَبَلْمُرْصَادٍ} .. تفسيره أنه من الرصد، يقال: رصدته: رقبته، والمرصاد مفعول منه، وتأويله التحذير من التهاون بأمر الله، والغفلة عن الأهبة والاستعداد للعرض عليه. وقواطع الأدلة تقتضى بيان المراد منه على خلاف وضع اللفظ فى اللغة" وعلى هذا فالنسبة بينهما التباين.

٥- قال البغوى ووافقه الكواشى: "التأويل هو صرف الآية إلى معنى محتمل يوافق ما قبلها وما بعدها، غير مخالف للكتاب والسنة من طريق الاستنباط. والتفسير هو الكلام فى أسباب نزول الآية وشأنها وقصتها" بتصرف. وعلى هذا فالنسبة بينهما التباين .

٦ - قال بعضهم: "التفسير ما يتعلق بالرواية، والتأويل ما يتعلق بالدراية"، وعلى هذا فالنسبة بينهما التباين.

٧ - التفسير هو بيان المعانى التى تُستفاد من وضع العبارة، والتأويل هو بيان المعانى التى تُستفاد بطريق الإشارة. فالنسبة بينهما التباين، وهذا هو المشهور عند المتأخرين، وقد نبّه إلي هذا الرأى الأخير العلامة الألوسى فى مقدمة تفسيره حيث قال بعد أن استعرض بعض أقوال العلماء فى هذا الموضوع: "وعندى أنه إن كان المراد الفرق بينهما بحسب العُرف فكل الأقوال فيه - ما سمعتها وما لم تسمعها

هذه هى أهم الأقوال فى الفرق بين التفسير والتأويل. وهناك أقوال أخرى أعرضنا عنها مخافة التويل.

الرأى الراجح

والذى تميل إليه النفس من هذه الأقوال: هو أن التفسير ما كان راجعاً إلى الرواية، والتأويل ما كان راجعاً إلى الدراية، وذلك لأن التفسير معناه الكشف والبيان. والكشف عن مراد الله تعالى لا نجزم به إلا إذا ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو عن بعض أصحابه الذين شهدوا نزول الوحي وعلموا ما أحاط به من حوادث ووقائع، وخالطوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورجعوا إليه فيما أشكل عليهم من معانى القرآن الكريم.

وأما التأويل.. فملحوظ فيه ترجيح أحد احتمالات اللفظ بالدليل.

والترجيح يعتمد على الاجتهاد، ويُتوصل إليه بمعرفة مفردات الألفاظ ومدلولاتها فى لغة العرب، واستعمالها بحسب السياق، ومعرفة الأساليب العربية، واستنباط المعانى من كل ذلك. قال الزركشى: "وكان السبب فى اصطلاح كثير على التفرقة بين التفسير والتأويل: التمييز بين المنقول والمستنبط، ليحيل على الاعتماد فى المنقول، وعلى النظر فى المستنبط"

المحاضرة الثانية

التفسير في عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم وأصحابه

نزل القرآن الكريم على نبي أمي، وقوم أميين، ليس لهم إلا ألسنتهم وقلوبهم، وكانت لهم فنون من القول يذهبون فيها مذاهبهم ويتواردون عليها، وكانت هذه الفنون لا تكاد تتجاوز ضروباً من الوصف، وأنواعاً من الحكم، وطائفة من الأخبار والأنساب، وقليلاً مما يجري هذا المجرى، وكان كلامهم مشتتلاً على الحقيقة والمجاز، والتصريح والكناية. والإيجاز والإطناب.

وجرباً على سنة الله تعالى في إرسال الرسل، نزل القرآن بلغة العرب

وعلى أساليبهم في كلامه: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ} .. [إبراهيم: ٤] فألفاظ القرآن عربية، إلا ألفاظاً قليلة، اختلفت فيها أنظار العلماء، فمن قائل: إنها عُرِبَتْ وأُخِذَتْ من لغات أخرى، ولكن العرب هضمتها وأجرت عليها قوانينها فصارت عربية بالاستعمال. ومن قائل: إنها عربية بحتة، غاية الأمر أنها مما تواردت عليه اللغات، وعلى كلا القولين فهذه الألفاظ لا تُخرج القرآن عن كونه عربياً.

استعمل القرآن في أسلوبه الحقيقة والمجاز، والتصريح والكناية، والإيجاز والأطناب، وعلى نمط العرب في كلامهم. غير أن القرآن يعلو على غيره من الكلام العربي، بمعانيه الرائعة التي افتنَّ بها في غير مذاهبهم، ونزع منها إلى غير فنونهم، تحقيقاً لإعجازه، ولكونه من لدن حكيم عليم.

فهم النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة للقرآن:

وكان طبيعياً أن يفهم النبي صلى الله عليه وسلم جملة وتفصيلاً، إذ تكفل الله تعالى له بالحفظ والبيان: {إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ} [القيامة: ١٧-١٩] ، كما كان طبيعياً أن يفهم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم القرآن في جملته، أى بالنسبة لظاهره وأحكامه، أما فهمه تفصيلاً، ومعرفة دقائق باطنه، بحيث لا يغيب عنهم شاردة ولا واردة، فهذا غير ميسور لهم بمجرد معرفتهم للغة القرآن، بل لا بد لهم من البحث والنظر والرجوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيما يشكل عليهم فهمه، وذلك لأن القرآن فيه المجمل، والمشكل، والمتشابه، وغير ذلك مما لا بد في معرفته من أمور أخرى يُرجع إليها

ولا أظن الحق مع ابن خلدون حيث يقول في مقدمته: "إن القرآن نزل بلغة العرب، وعلى أساليب بلاغتهم، فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه"، نعم لا أظن الحق معه في ذلك، لأن نزول القرآن بلغة العرب لا يقتضى أن العرب كلهم كانوا يفهمونه في مفرداته وتراكيبه، وأقرب دليل على هذا ما نشاهده اليوم من الكتب المؤلفة على اختلاف لغاتها، وعجز كثير من أبناء هذه اللغات عن فهم كثير مما جاء فيها بلغتهم، إذ الفهم لا يتوقف على معرفة اللغة وحدها، بل لا بد لمن يفتش عن المعاني ويبحث عنها من أن تكون له موهبة عقلية خاصة، تتناسب مع درجة الكتاب وقوة تأليفه.

تفاوت الصحابة في فهم القرآن الكريم

ولو أننا رجعنا إلى عهد الصحابة لوجدنا أنهم لم يكونوا في درجة واحدة بالنسبة لفهم معاني القرآن، بل تفاوتت مراتبهم، وأشكل على بعضهم ما ظهر لبعض آخر منهم، وهذا يرجع إلى تفاوتهم في القوة العقلية، وتفاوتهم في معرفة ما أحاط بالقرآن من ظروف وملابسات، وأكثر من هذا، أنهم كانوا لا يتساوون في معرفة المعاني التي وضعت لها المفردات، فمن مفردات القرآن ما خفى معناه على بعض الصحابة، ولا ضير في هذا، فإن اللغة لا يحيط بها إلا معصوم، ولم يدع أحد أن كل فرد من أمة يعرف جميع ألفاظ لغ تخوّف الرّحل منها تامكاً قرداً... كما تخوّف عود النبعة السفين وما أخرج أبو عبيدة من طريق مجاهد عن ابن عباس قال: "كنت لا أدري ما {فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ} حتى أتاني أعرابي يخاصم في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، والآخر يقول: أنا ابتدأتها".

فإذا كان عمر بن الخطاب يخفى عليه معنى "الأب" ومعنى "التخوف" ويسأل عنهما غيره، وابن عباس - وهو ترجمان القرآن - لا يظهر له معنى "فاطر" إلا بعد أن سمعها من غيره، فكيف شأن غيرهما من الصحابة؟ لا شك أن كثيراً منهم كانوا يكتفون بالمعنى الإجمالى للآية، فيكفيهم - مثلاً - أن يعلموا من قوله تعالى: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ أنه تعداد للنعم التي أنعم الله بها عليهم، ولا يلزمون أنفسهم بتفهم معنى الآية تفصيلاً ما دام المراد واضحاً جلياً.

وماذا يقول ابن خلدون فيما رواه البخارى، من أن عدى بن حاتم لم يفهم معنى قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا واشربوا حتى يَبَيِّنَ لَكُمُ الخيط الأبيض مِنَ الخيط الأسود مِنَ الفجر﴾ .. [البقرة: ١٨٧] وبلغ من أمره أن أخذ عقلاً أبيض وعقلاً أسود، فلما كان بعض الليل، نظر إليهما فلم يستبيننا، فلما أصبح أخبر الرسول بشأناه، فعرض بقلة فهمه، وأفهمه المراد.

... الحق أن الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - كانوا يتفاوتون فى القدرة على فهم القرآن وبيان معانيه المرادة منه، وذلك راجع - كما تقدم - إلى اختلافهم فى أدوات الفهم، فقد كانوا يتفاوتون فى العلم بلغتهم، فمنهم من كان واسع الاطلاع فيها ملماً بغريبها، ومنهم دون ذلك، ومنهم من كان يلازم النبى صلى الله عليه وسلم فيعرف من أسباب النزول ما لا يعرفه غيره، أضف إلى هذا وذلك أن الصحابة لم يكونوا فى درجتهم العلمية ومواهبهم العقلية سواء، بل كانوا مختلفين فى ذلك اختلافاً عظيماً.

قال مسروق: "جالست أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فوجدتهم كالإخاذ - يعنى الغدير - فالإخاذ يروى الرجل، والإخاذ يروى الرجلين، والإخاذ يروى العشرة، والإخاذ يروى المائة، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم".

هذا.. وقد قال ابن قتيبة - وهو ممن تقدم على ابن خلدون بقرون -: "إن العرب لا تستوى فى المعرفة بجميع ما فى القرآن من الغريب والمتشابه، بل إن بعضها يفضل فى ذلك على بعض".

ويظهر أن ابن خلدون قد شعر بذلك فصرح به فيما أورده بعد عبارته السابقة بقليل حيث قال: "وكان النبى صلى الله عليه وسلم يُبيِّن المجل، ويُميِّز الناسخ من المنسوخ، ويُعرِّفه أصحابه فعرّفوه وعرّفوا سبب نزول الآيات ومقتضى الحال منها منقولاً عنه".. وهذا تصريح منه بأن العرب كان لا يكفيهم فى معرفة معانى القرآن معرفتهم بلغته، بل كانوا فى كثير من الأحيان بحاجة إلى توقيف من الرسول صلى الله عليه وسلم.

مصادر التفسير فى هذا العصر :

كان الصحابة فى هذا العصر يعتمدون فى تفسيرهم للقرآن الكريم على أربعة مصادر:

الأول: القرآن الكريم.

الثانى: النبى صلى الله عليه وسلم.

الثالث: الاجتهاد وقوة الاستنباط.

الرابع: أهل الكتاب اليهود والنصارى.

ونوضح كل مصدر من من هذه المصادر الأربعة فنقول

الناظر فى القرآن الكريم يجد أنه قد اشتمل على الإيجاز والإطناب، وعلى الإجمال والتبيين، وعلى الإطلاق والتقييد، وعلى العموم والخصوص. وما أوجز فى مكان قد يُبسّط فى مكان آخر، وما أُجمل فى موضع قد يُبيّن فى موضع آخر، وما جاء مطلقاً فى ناحية قد يلحقه التقييد فى ناحية أخرى، وما كان عاماً فى آية قد يدخله التخصيص فى آية أخرى.

ولهذا كان لا بد لمن يعترض لتفسير كتاب الله تعالى أن ينظر فى القرآن أولاً، فيجمع ما تكرر منه فى موضوع واحد، ويقابل الآيات بعضها ببعض، ليستعين بما جاء مسهباً على معرفة ما جاء موجزاً، وبما جاء مُبيناً على فهم ما جاء مُجماً، وليحمل المُطلق على المقيد، والعام على الخاص، وبالمصدر الأول - القرآن الكريم:

هذا يكون قد فسر القرآن بالقرآن، وفهم مراد الله بما جاء عن الله، وهذه مرحلة لا يجوز لأحد مهما كان أن يعرض عنها، ويتخطاها إلى مرحلة أخرى، لأن صاحب الكلام أدرى بمعاني كلامه، وأعرف به من غيره.

وعلى هذا، فمن تفسير القرآن بالقرآن: أن يُشرح ما جاء موجزاً في القرآن بما جاء في موضع آخر مُسهباً، وذلك كقصة آدم وإبليس، جاءت مختصرة في بعض المواضع، وجاءت مُسهباً مطوّلة في موضع آخر، وكقصة موسى وفرعون، جاءت موجزة في بعض المواضع، وجاءت مُسهباً مُفصّلة في موضع آخر.

ومن تفسير القرآن بالقرآن: أن يُحمل المجمل على المبيّن لِيُفسّر به، وأمثلة ذلك كثيرة في القرآن، فمن ذلك تفسير قوله تعالى في سورة غافر الآية [٢٨]: {وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدْكُمْ} بأنه العذاب الأدنى المُعجل في الدنيا، لقوله تعالى في آخر هذه السورة آية [٧٧]: {فَأَمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّئَنَّكَ فَالْيَنَّا يُرْجَعُونَ} .. ومنه تفسير قوله تعالى في سورة النساء آية [٢٧]: {وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيماً} بأهل الكتاب لقوله تعالى في السورة نفسها آية [٤٤]: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحاً مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالََةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ} .. ومنه قوله تعالى في سورة البقرة آية [٣٧]: {فَتَلَقَىٰ آدَمُ

مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ} فسرتها الآية [٢٣] من سورة الأعراف: {قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} .. ومنه قوله تعالى في سورة الأنعام آية [١٠٣]: {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ} فسرتها آية: {إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} الآية [٢٣] من سورة القيامة. ومنه قوله تعالى في سورة المائدة آية [١]: {أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ} .. فسرتها آية {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ} الآية [٣] من السورة نفسها.

ومن تفسير القرآن بالقرآن حمل المُطلق على المُقيّد، والعام على الخاص، فمن الأول: ما نقله الغزالي عن أكثر الشافعية من حمل المُطلق على المُقيّد في صورة اختلاف الحكمين عند اتحاد السبب، ومثّل له بأية الوضوء والتيمم، فإن الأيدي مُقيّدة في الوضوء بالغاية في قوله تعالى في سورة المائدة آية [٦]: {فَاعْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ} .. ومطلقة في التيمم في قوله تعالى في الآية نفسها: {فَامْسَحُوا بُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ مِنْهُ} .. فقيدت في التيمم بالمرافق أيضاً، ومن أمثله أيضاً عند بعض العلماء: آية الظّهار مع آية القتل، ففي كفارة الظّهار يقول الله تعالى في سورة المجادلة آية [٣]: {فَقَحْرِيرُ رَقَبَةٍ} .. وفي كفارة القتل، يقول في سورة النساء آية [٩٢]: {فَقَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤَمَّنَةٍ} .. فيحمل المطلق في الآية الأولى على المُقيّد في الآية الثانية، بمجرد ورود اللفظ المقيد من غير حاجة إلى جامع عند هذا البعض من العلماء.

ومن الثاني: نفى الخُلة والشفاعة على جهة العموم في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بِنِعْ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ} .. وقد استثنى الله المتقين من نفى الخلة في قوله: {الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ} .. واستثنى ما أذن فيه من الشفاعة بقوله: {وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مَن بَعَدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى} .. ومثّل قوله تعالى: {مَن يَعْمَلْ سِوَاءَ إِجْرٍ بِهِ} .. فإن ما فيها من عموم خصص بمثل قوله: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ} ..

ومن تفسير القرآن بالقرآن: الجمع بين ما يُتوهم أنه مختلف، كخلق آدم من تراب في بعض الآيات، ومن طين في غيرها، ومن حمأ مسنون، ومن صلصال، فإن هذا ذكر للأطوار التي مرّ بها آدم من مبدأ خلقه إلى نفخ الروح فيه. ومن تفسير القرآن بالقرآن: حمل بعض القراءات على غيرها، فبعض القراءات تختلف مع غيرها في اللفظ وتتفق في المعنى، فقراءة ابن مسعود رضي الله عنه: "أو يكون لك بيت من ذهب" تفسّر لفظ الزخرف في القراءة المشهورة: {أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرَفٍ} ..

وبعض القراءات تختلف مع غيرها في اللفظ والمعنى، وإحدى القراءتين تُعيّن المراد من القراءة الأخرى، فمثلاً قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ} .. وفسرتها القراءة الأخرى: "فامضوا إلى ذكر الله"، لأن السعى عبارة عن المشى السريع، وهو وإن كان ظاهر اللفظ إلا أن المراد منه مجرد الذهاب.

وبعض القراءات تختلف بالزيادة والنقصان، وتكون الزيادة في إحدى القراءتين مفسّرة للمجمل في القراءة التي لا زيادة فيها، فمن ذلك: القراءة المنسوبة لابن عباس: "ليس عليكم جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فِي مَوَاسِمِ الْحَجِّ" .. فسّرت

القراءة الأخرى التي لا زيادة فيها، وأزالت الشك من قلوب بعض الناس الذين كانوا يتحرّجون من الصفق في أسواق الحج.. والقراءة المنسوبة لسعد بن أبي وقاص: "وإن كان رجل يورث كلاله أو امرأة وله أخ أو أخت من أم فلكل واحد منهما السُدُس".. فسُرت القراءة الأخرى التي لا تعرض فيها لنوع الأخوة.

وهنا تختلف أنظار العلماء في مثل هذه القراءات فقال بعض المتأخرين: إنها من أوجه القرآن، وقال غيرهم: إنها ليست قرآناً، بل هي من قبيل التفسير، وهذا هو الصواب: لأن الصحابة كانوا يفسّرون القرآن ويرون جواز إثبات التفسير بجانب القرآن فظنها بعض الناس - لتناول الزمن عليها - من أوجه القراءات التي صحّت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ورواها عنه أصحابه.

ومما يؤيد أن القراءات مرجع مهم من مراجع تفسير القرآن بالقرآن، ما روى عن مجاهد أنه قال: "لو كنتُ قرأتُ قراءة ابن مسعود قبل أن أسأل ابن عباس ما احتجّتُ أن أسأله عن كثير مما سألته عنه".

هذا هو تفسير القرآن بالقرآن، وهو ما كان يرجع إليه الصحابة في تعرف بعض معاني القرآن، وليس هذا عملاً آلياً لا يقوم على شيء من النظر، وإنما هو عمل يقوم على كثير من التدبر والتعقل، إذ ليس حمل المجمل على المبين، أو المطلق على المقيد، أو العام على الخاص، أو إحدى القراءتين على الأخرى بالأمر الهين الذي يدخل تحت مقدور كل إنسان، وإنما هو أمر يعرفه أهل العلم والنظر خاصة .

المحاضرة الثالثة

تابع التفسير فى عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم وأصحابه

والذى يرجع إلى كتب السنّة يجد أنها قد أفردت للتفسير باباً من الأبواب التى اشتملت عليها، ذكرت فيه كثيراً من التفسير المأثور عن رسول الله صلا للمصدر الثانى الذى كان يرجع إليه الصحابة فى تفسيرهم لكتاب الله تعالى هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان الواحد منهم إذا أشكلت عليه آية من كتاب الله، رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تفسيرها، فبيّن له ما خفى عليه، لأن وظيفة البيان، كما أخبر الله عنه بذلك فى كتابه حيث قال: " {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [النحل: ٤٤] .. وكما نبّه على ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو داود بسنده إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ألا وإنى أوتيت الكتاب ومثله معي ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلّوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرّموه" ... الحديثى الله عليه وسلم، فمن ذلك:

ما أخرجه أحمد والترمذى وغيرهما عن عدى بن حبان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن المغضوب عليهم هم اليهود، وإن الضالين هم النصارى".

وما رواه الترمذى وابن حبان فى صحيحه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الصلاة الوسطى صلاة العصر".

وما رواه أحمد والشيخان وغيرهما عن ابن مسعود قال: "لما نزلت هذه الآية: {الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم} [الأنعام: ٨٢] . شق ذلك على الناس فقالوا:

يا رسول الله؛ وأينا لا يظلم نفسه؟ قال: "إنه ليس الذى تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: إن الشرك لظلم عظيم؟ إنما هو الشرك".

وما أخرجه مسلم وغيره عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو على المنبر: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ} [الأنفال: ٦٠] .. ألا وإن القوة الرمي".

وما أخرجه الترمذى عن علىّ قال: "سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن يوم الحج الأكبر فقال: "يوم النحر".

وما أخرجه الترمذى وابن جرير عن أبي بن كعب أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: {وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى} [الفتح: ٢٦] .. قال: "لا إله إلا الله".

وما أخرجه أحمد والشيخان وغيرهما عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من نوقش الحساب عذب" قلت: أليس يقول الله: {فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا} [الانشقاق: ٨] ؟ قال: "ليس ذلك بالحساب.. ولكن ذلك العرض".

وما أخرجه أحمد ومسلم عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الكوثر نهر أعطانيه ربي فى الجنة".

وغير هذا كثير مما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

المقدار الذى بيّنه رسول الله صلى الله عليه وسلم من القرآن لأصحابه:

اختلف العلماء فى المقدار الذى بيّنه النبى صلى الله عليه وسلم من القرآن لأصحابه: فمنهم من ذهب إلى القول بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بيّن لأصحابه كل معانى القرآن كما بيّن لهم ألفاظه، وعلى رأس هؤلاء ابن تيمية.

ومنهم من ذهب إلى القول بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبيّن لأصحابه من معانى القرآن إلا القليل، وعلى رأس هؤلاء: الخويزى والسيوطى، وقد استدل كل فريق على ما ذهب إليه بأدلة نوردها ليتضح لنا الحق ويظهر الصواب.

*أدلة من قال النبى صلى الله عليه وسلم بيّن كل معانى القرآن:

أولاً: قوله تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} ..

والبيان فى الآية يتناول بيان معانى القرآن، كما يتناول بيان ألفاظه، وقد بيّن الرسول ألفاظه كلها، فلا بد أن يكون قد بيّن كل معانيه أيضاً، وإلا كان مقصراً فى البيان الذى كُلف به من الله.

ثانياً: ما روى عن أبى عبد الرحمن السلمى أنه قال: "حدّث الذين كانوا يُقرئونا القرآن، كعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وغيرهما: أنهم كانوا إذا تعلّموا من النبى صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يتعلّموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلّمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً"، ولهذا كانوا يبقون مدة طويلة فى حفظ السورة، وقد ذكر الإمام مالك فى الموطأ: أن ابن عمر أقام على حفظ "البقرة" ثمان سنوات

والذى حمل الصحابة على هذا، ما جاء فى كتاب الله تعالى من قوله: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ} [ص: ٢٩] .. وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن، وقوله: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [يوسف: ٢] .. وعقل الكلام متضمن لفهمه، ومن المعلوم أن كل كلام يُقصد منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه، والقرآن أولى بذلك من غيره.

هذه الآثار تدل على أن الصحابة تعلّموا من رسول الله صلى الله عليه وسلم معانى القرآن كلها، كما تعلّموا ألفاظه.

ثالثاً: قالوا إن العادة تمنع أن يقرأ قوم كتاباً فى فن من العلم كالطب أو الحساب ولا يستشرحوه، فكيف بكتاب الله الذى فيه عصمتهم، وبه نجاتهم وسعادتهم فى الدنيا والآخرة؟

رابعاً: ما أخرجه الإمام أحمد وابن ماجه عن عمر رضى الله عنه أنه قال: "من أخرج ما نزل آية الربا، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض قبل أن يُفسّر ها"، وهذا يدل بالفحوى على أنه كان يُفسّر لهم كل ما نزل، وأنه إنما لم يُفسّر هذه الآية، لسرعة موته بعد نزولها، وإلا لم يكن للتخصيص بها وجه.

أدلة من قال بأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يبيّن لأصحابه إلا القليل من معانى القرآن:

استدل أصحاب هذا الرأى بما يأتى:

أولاً: ما أخرجه البزار عن عائشة قالت: "ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُفسّر شيئاً من القرآن إلا آياً بعدد، علّمه إياهن جبريل".

ثانياً: قالوا: إن بيان النبى صلى الله عليه وسلم لكل معانى القرآن متعذر، ولا يمكن ذلك إلا فى آى قلائل، والعلم بالمراد يُستتبط بأمارات ودلائل، ولم يأمر الله نبيه بالتنصيص على المراد فى جميع آياته لأجل أن يتفكر عباده فى كتابه.

ثالثاً: قالوا: لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبيّن لأصحابه كل معانى القرآن لما كان لتخصيصه ابن عباس بالدعاء بقوله: "اللهم فقهه فى الدين وعلّمه التاويل" فائدة، لأنه يلزم من بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه كل معانى القرآن استواؤهم فى معرفة تأويله، فكيف يخصص ابن عباس بهذا الدعاء؟.

***مغلاة الفريقين:**

ومن يتأمل فيما تقدّم من أدلة الفريقين يتضح له أنهما على طرفى نقيض. ورأى أن كل فريق منهم مبالغ فى رأيه. وما استدلل إليه كل فريق من الأدلة يمكن مناقشته بما يجعله لا ينهض حجة على المدعى.

***مناقشة أدلة الفريق الأول:**

فاستدل ابن تيمية ومن معه على رأيهم بقوله تعالى: {لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ} استدلال غير صحيح، لأن الرسول - بمقتضى كونه مأموراً بالبيان - كان يبيّن لهم ما أشكل عليهم.

وأما استدلالهم بما روى عن عثمان وابن مسعود وغيرهما من أنهم كانوا إذا تعلّموا من النبى صلى الله عليه وسلم عشر

آيات من القرآن لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها، فهو استدلال لا ينتج المدعى، لأن غاية ما يفيد، أنهم كانوا لا يجاوزون ما تعلموه من القرآن حتى يفهموا المراد منه، وهو أعم من أن يفهموه من النبي صلى الله عليه وسلم أو من غيره من إخوانهم الصحابة، أو من تلقاء أنفسهم، حسبما يفتح الله به عليهم من النظر والاجتهاد.

وأما الدليل الثالث، فكل ما يدل عليه: هو أن الصحابة كانوا يفهمون القرآن ويعرفون معانيه، شأن أى كتاب يقرؤه قوم، ولكن لا يلزم منه أن يكونوا قد رجعوا إلى النبي فى كل لفظ منه.

وأما الدليل الرابع، فلا يدل أيضاً، لأن وفاة النبي عليه الصلاة والسلام قبل أن يُبين لهم آية الربا لا تدل على أنه كان يُبين لهم كل معانى القرآن، فلعل هذه الآية كانت مما أشكل على الصحابة، فكان لا بد من الرجوع فيها إلى النبي عليه السلام، شأن غيرها من مشكلات القرآن.

* مناقشة أدلة الفريق الثانى:

وأما استدلال أصحاب الرأى الثانى بحديث عائشة، فهو استدلال باطل، لأن الحديث منكر غريب، لأنه من رواية محمد بن جعفر الزبيرى، وهو مطعون فيه، قال البخارى: "لا يُتابع فى حديثه"، وقال الحافظ أبو الفتح الأزدى: "منكر الحديث"،

وقال فيه ابن جرير الطبرى: "إنه ممن لا يُعرف فى أهل الآثار"، وعلى فرض صحة الحديث فهو محمول - كما قال أبو حيان - على مغيبات القرآن، وتفسيره لمجمله، ونحوه مما لا سبيل إليه إلا بتوقيف من الله. وفى معناه ما قاله ابن جرير وما قاله ابن عطية.

وأما الدليل الثانى، فلا يدل أيضاً على ندرة ما جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام فى التفسير، إذ أن دعوة إمكان التفسير بالنسبة لآيات قلائل، وتعذره بالنسبة للكل غير مُسلمة، وأما ما قيل من أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يؤمر بالتنصيص على المراد فى جميع الآيات لأجل أن يتفكر الناس فى آيات القرآن فليس بشيء، إذ أن النبي عليه الصلاة والسلام مأمور بالبيان، وقد يشكل الكثير على أصحابه فيلزمه البيان، ولو فرض - أن القرآن أشكل كله على الصحابة ما كان للنبي عليه الصلاة والسلام أن يمتنع

عن بيان كل آية منه، بمقتضى أمر الله له فى الآية: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ} .

وأما الدليل الثالث، فلو سلمنا أنه يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يُفسر كل معانى القرآن. فلا نُسلم أنه يدل على أنه فسّر النادر منه كما هو المدعى.

اختيارنا فى المسألة:

والرأى الذى تميل إليه النفس - بعد أن اتضح لنا مغالاة كل فريق فى دعواه وعدم صلاحية الأدلة لإثبات المدعى - هو أن نتوسط بين الرأىين فنقول: إن الرسول صلى الله عليه وسلم بيّن الكثير من معانى القرآن لأصحابه، كما تشهد بذلك كتب الصحاح، ولم يُبين كل معانى القرآن، لأن من القرآن ما استأثر الله تعالى بعلمه، ومنه ما يعلمه العلماء، ومنه ما تعلمه العرب من لغاتها، ومنه ما لا يُعذر أحد فى جهالته كما صرح بذلك ابن عباس فيما رواه عنه ابن جرير، قال: "التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يُعذر أحد بجهالته، وتفسير تعرفه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله". وبدى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفسر لهم ما يرجع فهمه إلى معرفة كلام العرب، لأن القرآن نزل بلغتهم،

ولم يفسر لهم ما تتبادر الأفهام إلى معرفته وهو الذى لا يُعرفه أحد بجهله، لأنه لا يخفى على أحد، ولم يفسر لهم ما استأثر الله بعلمه كقيام الساعة، وحقيقة الروح، وغير ذلك من كل ما يجرى مجرى الغيوب التى لم يُطلع الله عليها نبيه

وإنما فسّر لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض المغيبات التي أخفاها الله عنهم وأطلعها عليها وأمره ببيانها لهم، وفسّر لهم أيضاً كثيراً مما يندرج تحت القسم الثالث، وهو ما يعلمه العلماء يرجع إلى اجتهادهم، كبيان المجمل، وتخصيص العام، وتوضيح المشكل، وما إلى ذلك من كل ما خفى معناه والتبس المراد به.

هذا.. وإنّ مما يؤيد أن النبي عليه الصلاة والسلام لم يُفسّر كل معاني القرآن، أن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وقع بينهم الاختلاف في تأويل بعض الآيات، ولو كان عندهم فيه نص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما وقع هذا الاختلاف، أو لارتفع بعد الوقوف على النص.

بقي بعد هذا أن نجيب عن الشق الثاني من السؤال، وهو: على أي وجه كان بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم للقرآن؟ فنقول:

إنّ الناظر في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة يجد فيهما ما يدل على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وظيفته البيان لكتاب الله، أو بعبارة أخرى، ما يدل على أن مركز السنة النبوية من القرآن، مركز المبيّن من المبيّن. من القرآن، قوله تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ} .

ومن السنة، ما رواه أبو داود عن المقدم بن معد يكرب، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ألا وإنّي أوتيتُ الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلّوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرّموه، إلا لا يحل لكم الحمار الأهلي، ولا كل ذى ناب من السباع، ولا لقطعة معاهد، إلا أن يستغنى عنها صاحبها، ومن نزل بقوم فعليهم أن يقرّوه، فإن لم يقرّوه فله أن يعقبهم بمثل قرّاه".

فقوله: "أوتيتُ الكتاب ومثله معه" معناه أنه أوتى الكتاب وحيّاً يُتلى، وأوتى من البيان مثله، أى أدّن له أن يبيّن ما فى الكتاب. فيعم ويخص، ويزيد عليه ويُشرّع ما فى الكتاب، فيكون فى وجوب العمل به ولزوم قبوله كالظاهر المتلو من القرآن. ويحتمل وجهاً آخر: وهو أنه أوتى من الوحي الباطن عن المتلو، مثل ما أعطى من الظاهر المتلو، كما قال تعالى فى سورة النجم آيتى [٣، ٤]: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ} ..

وأما قوله: "يوشك رجل شبعان.. " إلخ، فالمقصود منه التحذير من مخالفة السنة التي سنّها الرسول وليس لها ذكر فى القرآن، كما هو مذهب الخوارج والروافض الذين تعلّقوا بظاهر القرآن وتركوا السنن التي ضمنّت بيان الكتاب فتحيرّوا وضلّوا، وروى الأوزاعي عن حسان بن عطية قال: "كان الوحي ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويحضره جبريل بالسنة التي تفسّر ذلك"، وروى الأوزاعي عن مكحول قال: "القرآن أحوج إلى السنة من السنة إلى القرآن".

***أوجه بيان السنة للكتاب:**

وإذ قد اتضح لنا من الآية والحديث والآثار مقدار ارتباط السنة بالكتاب، ارتباط المبيّن فلنبيّن بعد ذلك أوجه هذا البيان فنقول:

الوجه الأول: بيان المجمل فى القرآن، وتوضيح المشكل، وتخصيص العام، وتقبيد المطلق، فمن الأول: بيانه عليه الصلاة والسلام لمواقيت الصلوات الخمس، وعدد ركعاتها، وكيفيتها، وبيانه لمقادير الزكاة، وأوقاتها، وأنواعها، وبيانه لمناسك الحج. ولذا قال: "خذوا عنى مناسككم"، وقال: "صلّوا كما رأيتمونى أصلى".

لظهر فى كتاب الله أربعاً لا يُجهر فيها بالقراءة؟ ثم عدّد عليه الصلاة، والزكاة، ونحو ذلك، ثم قال: أتجد هذا فى كتاب الله تعالى مُفسّراً؟ إن كتاب الله تعالى أبهم هذا، وإن السنة تُفسّر هذا"

ومن الثاني: تفسيره - صلى الله عليه وسلم - للخيط الأبيض والخيط الأسود فى قوله تعالى: {حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطَ الْأَبْيَضَ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ} [البقرة: ١٨٧] بأنه بياض النهار وسواد الليل.

ومن الثالث: تخصيصه - صلى الله عليه وسلم - الظلم في قوله تعالى: {الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم} [الأنعام: ٨٢] بالشرك، فإن بعض الصحابة فهم أن الظلم مراد منه العموم، حتى قال: وأينا لم يظلم نفسه؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "ليس بذلك، إنما هو الشرك".

ومن الرابع: تقييده اليد في قوله تعالى: {فاقطعوا أيديهما} [المائدة: ٣٨] باليمين.

الوجه الثاني: بيان معنى لفظ أو متعلقه، كبيان: {المغضوب عليهم} باليهود، و {الضالين} بالنصارى. وكبيان قوله تعالى: {ولهم فيها أزواج مطهرة} [البقرة: ٢٥] بأنها مطهرة من الحيض والبزاق والنخامة، وكبيان قوله تعالى: {وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين} * فبذل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم} [البقرة: ٥٨-٥٩] بأنهم دخلوا يزحفون على أستاههم وقالوا: حبة في شعيرة.

الوجه الثالث: بيان أحكام زائدة على ما جاء في القرآن الكريم، كتحريم نكاح المرأة على عمتها وخالتها، وصدقة الفطر، ورجم الزانى المحصن، وميراث الجدة، والحكم بشاهد ويمين، وغير هذا كثير يوجد في كتب الفروع.

الوجه الرابع: بيان النسخ: كأن يُبين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن آية كذا نسخت بكذا، أو أن حكم كذا نسخ بكذا، فقوله عليه الصلاة والسلام: " لا وصية لوارث" بيان منه أن آية الوصية للوالدين والأقربين منسوخ حكمها وإن بقيت تلاوتها. وحديث: "البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام" بيان منه أيضاً لنسخ حكم الآية [١٥] من سورة النساء: {واللاتي يأتين الفاحشة من نساءكن فاستنشهدوا عليهن أربعة منكن} .. وغير هذا كثير.

الوجه الخامس: بيان التأكيد، وذلك بأن تأتي السنة موافقة لما جاء به

الكتاب، ويكون القصد من ذلك تأكيد الحكم وتقويته. وذلك كقوله عليه الصلاة والسلام: "لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه" فإنه يوافق قوله تعالى: {لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ} [النساء: ٢٩] .. وقوله عليه الصلاة والسلام: "اتقوا الله في النساء فإنهن عوان في أيديكم، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله،" فإنه موافق لقوله تعالى: {وَعَاثِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ} [النساء: ١٩] .

*المصدر الثالث من مصادر التفسير في عصر الصحابة - الاجتهاد وقوة الاستنباط:

كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، إذا لم يجدوا التفسير في كتاب الله، ولم يتيسر لهم أخذه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم رجعوا في ذلك إلى اجتهادهم وإعمال رأيهم،

وهذا بالنسبة لما يحتاج إلى نظر واجتهاد، أما ما يمكن فهمه بمجرد معرفة اللغة العربية فكانوا لا يحتاجون في فهمه إلى إعمال النظر، ضرورة أنهم من خُص العرب، يعرفون كلام العرب ومناحيهم في القول، ويعرفون الألفاظ العربية ومعانيها بالوقوف على ما ورد من ذلك في الشعر الجاهلي الذي هو ديوان العرب، كما يقول عمر رضى الله عنه.

أدوات الاجتهاد في التفسير عند الصحابة:

وكثير من الصحابة كان يُفسر بعض آي القرآن بهذا الطريق، أعنى طريق الرأى والاجتهاد، مستعيناً على ذلك بما يأتي:

أولاً: معرفة أوضاع اللغة وأسرارها.

ثانياً: معرفة عادات العرب.

ثالثاً: معرفة أحوال اليهود والنصارى في جزيرة العرب وقت نزول القرآن.

رابعاً: قوة الفهم وسعة الإدراك.

فمعرفة أوضاع اللغة العربية وأسرارها، تعين على فهم الآيات التي لا يتوقف فهمها على غير لغة العرب. ومعرفة عادات العرب تعين على فهم كثير من الآيات التي لها صلة بعاداتهم، فمثلاً قوله تعالى: {إِنَّمَا النَّسِيَاءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ} [التوبة: ٣٧] .. وقوله: {وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا} [البقرة: ١٨٩] . لا يمكن فهم المراد منه، إلا لمن عرف عادات العرب في الجاهلية وقت نزول القرآن.

ومعرفة أحوال اليهود والنصارى في جزيرة العرب وقت نزول القرآن، تعين على فهم الآيات التي فيها الإشارة إلى أعمالهم والرد عليهم.

ومعرفة أسباب النزول، وما أحاط بالقرآن من ظروف وملابسات، تعين على فهم كثير من الآيات القرآنية، ولهذا قال الواحدى: "لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها". وقال ابن دقيق العيد: "بيان سبب النزول طريق قوى فى فهم معانى القرآن" وقال ابن تيمية: "معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية. فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب". وأما قوة الفهم وسعة الإدراك، فهذا فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده. وكثير من آيات القرآن يدق معناه، ويخفى المراد منه، ولا يظهر إلا لمن أوتى حظاً من الفهم ونور البصيرة، ولقد كان ابن عباس صاحب النصيب الأكبر والحظ الأوفر من ذلك، وهذا ببركة دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم له بذلك حيث قال: "اللَّهُمَّ فَاقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمَهُ التَّأْوِيلَ".

وقد روى البخارى فى صحيحه بسنده إلى أبى جحيفة رضى الله عنه أنه قال: "قلت لعلّى رضى الله عنه: هل عندكم شئ من الوحي إلا ما فى كتاب الله؟ قال: لا، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما أعلمه إلا فهماً يُعطيه الله رجلاً فى القرآن، وما فى هذه الصحيفة، قلت: وما فى هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، وألاً يُقتل مسلم بكافر". هذه هى أدوات الفهم والاستنباط التى استعان بها الصحابة على فهم القرآن الكريم .

المحاضرة الرابعة

تابع التفسير في عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم وأصحابه

المصدر الرابع للتفسير في عهد الصحابة هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى.

وذلك أن القرآن الكريم يتفق مع التوراة في بعض المسائل، وبالأخص في قصص الأنبياء، وما يتعلق بالأمم الغابرة، وكذلك يشتمل القرآن على مواضع وردت في الإنجيل كقصة ميلاد عيسى ابن مريم، ومعجزاته عليه السلام.

غير أن القرآن الكريم اتخذ منهجاً يخالف منهج التوراة والإنجيل، فلم يتعرض لتفاصيل جزئيات المسائل، ولم يستوف القصة من جميع نواحيها، بل اقتصر من ذلك على موضع العبرة فقط.

ولما كانت العقول دائماً تميل إلى الاستيفاء والاستقصاء، جعل بعض الصحابة - رضى الله عنهم أجمعين - يرجعون في استيفاء هذه القصص التي لم يتعرض لها

قرآن من جميع نواحيها إلى مَنْ دخل في دينهم من أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام، وكعب الأحبار، وغيرهم من علماء اليهود والنصارى.

وهذا بالضرورة كان بالنسبة إلى ما ليس عندهم فيه شئ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنه لو ثبت شئ في ذلك عن رسول الله ما كانوا يعدلون عنه إلى غيره مهما كان المأخوذ عنه.

المفسرون من الصحابة

اشتهر بالتفسير من الصحابة عدد قليل، قالوا في القرآن بما سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم مباشرة أو بالواسطة، وبما شاهدوه من أسباب النزول، وبما فتح الله به عليهم من طريق الرأى والاجتهاد.

* أشهر المفسرين من الصحابة:

وقد عدَّ السيوطى رحمه الله فى "الإتقان" مَنْ اشتهر بالتفسير من الصحابة وسَمَّاهم، وهم: الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس، وأبى بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعرى، وعبد الله بن الزبير، رضى الله عنهم أجمعين.

وهناك مَنْ تكلم فى التفسير من الصحابة غير هؤلاء: كأنس بن مالك، وأبى هريرة، وعبد الله بن عمر، وجابر بن عبد الله، وعبد الله بن عمرو ابن العاص، وعائشة، وغير أن ما نُقلَ عنهم فى التفسير قليل جداً، ولم يكن لهم من الشهرة بالقول فى القرآن ما كان للعشرة المذكورين أولاً، كما أن العشرة الذين اشتهروا بالتفسير، تفاوتوا قِلةً وكثرةً، فأبو بكر وعمر وعثمان لم يرد عنهم فى التفسير إلا النزر اليسير، ويرجع السبب فى ذلك إلى تقدم وفاتهم، واشتغالهم بمهام الخلافة والفتوحات، أضف إلى ذلك وجودهم فى وسط أغلب أهله علماء بكتاب الله، واقفون على أسرارِهِ، عارفون بمعانيه وأحكامه، مكتملة فيهم خصائص العروبة، مما جعل الحاجة إلى الرجوع إليهم فى التفسير غير كبيرة. أما على بن أبى طالب رضى الله عنه، فهو أكثر الخلفاء الراشدين رواية عنه فى التفسير،

والسبب فى ذلك راجع إلى تفرغه عن مهام الخلافة مدة طويلة، دامت إلى نهاية خلافة عثمان رضى الله عنه، وتأخر وفاته إلى زمن كثرت فيه حاجة الناس إلى مَنْ يُفسر لهم ما خفى عنهم من معانى القرآن، وذلك ناشئ من اتساع رقعة الإسلام، ودخول كثير من الأعاجم فى دين الله، مما كاد يذهب بخصائص اللغة العربية.

وكذلك كثرت الرواية فى التفسير عن عبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، وأبى بن كعب، لحاجة الناس إليهم، ولصفات عامة مكنت لهم ولعلى بن أبى طالب أيضاً فى التفسير، هذه الصفات هى: قوتهم فى اللغة العربية، وإحاطتهم بمناحيها وأساليبها، وعدم تحرجهم من الاجتهاد وتقرير ما وصلوا إليه باجتهادهم، ومخالطتهم للنبي صلى الله عليه وسلم

مخالطة مكنتهم من معرفة الحوادث التى نزلت فيها آيات القرآن، نستثنى

ن ذلك ابن عباس، فإنه لم يلازم النبي عليه الصلاة والسلام في شبابه. لوفاة النبي عليه الصلاة والسلام وهو في سن الثالثة عشرة أو قريب منها، لكنه استعاض عن ذلك بملازمة كبار الصحابة، يأخذ عنهم ويروى لهم.

أما باقى العشرة وهم: زيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله ابن الزبير، فهم وإن اشتهروا بالتفسير إلا أنهم قلت عنهم الرواية ولم يصلوا فى التفسير إلى ما وصل إليه هؤلاء الأربعة المكثرون.

لهذا نرى الإمساك عن الكلام فى شأن أبى بكر، وعمر، وعثمان، وزيد ابن ثابت، وأبى موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير، ونتكلم عن على، وابن عباس، وابن مسعود، وأبى بن كعب، نظراً لكثرة الرواية عنهم فى التفسير، كثرة غدت مدارس الأمصار على اختلافهم وكثرتها.

ولو أننا رتبنا هؤلاء الأربعة حسب كثرة ما روى عنهم لكان أولهم عبد الله بن عباس، ثم عبد الله بن مسعود، ثم على بن أبى طالب، ثم أبى بن كعب وستكلم عن كل واحد من هؤلاء الأربعة، بما يتناسب مع مشربه فى التفسير ومنحاه الذى نحاه فيه.

أشهر المفسرين من الصحابة: عبد الله بن عباس *ترجمته

هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشى الهاشمى، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمه لُبابة الكبرى بنت الحارث بن حَزَن الهلالية. وَلِدَ والنبي عليه الصلاة والسلام وأهل بيته بالشَّعْب بمكة. فَأَتَى به النبي عليه الصلاة والسلام فحنكه بريقه، وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين، ولازم النبي عليه الصلاة والسلام فى صغره، لقرابته منه، ولأن خالته ميمونة كانت من أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وله من العمر ثلاث عشرة سنة، وقيل: خمس عشرة، فلازم كبار الصحابة وأخذ عنهم ما فاته من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت وفاته سنة ثمان وستين على الأرجح، وله من العمر سبعون سنة. مات بالطائف ودُفن بها، وتولى وضعه فى قبره محمد ابن الحنفية، وقال بعد أن سوَّى عليه التراب: مات والله اليوم حَبْرُ هذه الأمة

مبلغه من العلم:

كان ابن عباس يُلقَّب بالحَبْر والبحر لكثرة علمه، وكان على درجة عظيمة من الاجتهاد والمعرفة بمعنى كتاب الله، ولذا انتهت إليه الرياسة فى الفتوى والتفسير، وكان عمر رضى الله عنه يُجلسه فى مجلسه مع كبار الصحابة ويُدنيه منه، وكان يقوله: إنك لأصبح فتياننا وجهاً، وأحسنهم خُلقاً، وأفقههم فى كتاب الله.

وقال فى شأنه: ذاكم فتى الكهول، إنَّ له لساناً سئولاً، وقلباً عقولاً. وكان لفرط أدبه إذا سألَه عمر مع الصحابة عن شئ يقول لا أتكلم حتى يتكلموا. وكان عمر رضى الله عنه يعتد برأى ابن عباس مع حداثة سنه، يدلنا على ذلك ما رواه ابن الأثير فى كتابه "أسد الغابة" عن عبيد الله بن عتبة قال: "إن عمر كان إذا جاءته الأفضية المعضلة قال لابن عباس: إنها قد طرات علينا أفضية وعضل، فأنت لها ولأمثالها، فكان يأخذ بقوله، وما كان يدعو لذلك أحداً سواه" قال عبيد الله: وعمر هو عمر فى حدقه واجتهاده لله وللمسلمين، وما رواه البخارى من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: "كان عمر يُدخلنى مع أشياخ بدر، فكان بعضهم وَجَدَ فى نفسه وقال: لِمَ يُدخل هذا معنا وإنَّ لنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من أعلمكم، فدعاهم ذات يوم فأدخلنى معهم، فما رأيت أنه دعانى يومئذ إلا ليريهم، فقال: ما تقولون فى قوله: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ}؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم ولم يقل شيئاً، فقال لى: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، فقال: ما تقول؟ قلت: هو أَجَلُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه الله له، قال: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} فذلك علامة أجلك، {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}

.. فقال عمر: لا أعلم منها إلا ما تقول".

وهذا يدل على قوة فهمه وجودة فكره. وقال فيه ابن مسعود رضى الله عنه: "يَعْمَ ترجمان القرآن ابن عباس". وقال فيه عطاء: "ما رأيت أكرم من مجلس ابن عباس، أصحاب الفقه عنده، وأصحاب القرآن عنده، وأصحاب الشَّعْر عنده،

يصدرهم كلهم من واد واسع". وقال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة: "كان ابن عباس قد فات الناس بخصال: بعلم ما سبقه، وفقه فيما احتيج إليه من رأيه، وحلم، ونسب، وتأويل، وما رأيتُ أحداً كان أعلم بما سبقه من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم منه، ولا بقضاء أبي بكر وعمر وعثمان منه، ولا أفقه في رأى منه، ولا أتقب رأياً فيما احتيج إليه منه، ولقد كان يجلس يوماً ولا يذكر فيه إلا الفقه، ويوماً التأويل، ويوماً المغازى، ويوماً الشعر، ويوماً أيام العرب، ولا رأيت عالماً قط جلس إليه إلا خضع له، وما رأيت سائلاً قط سأله إلا وجد عنده علماً". وقيل لطاووس: لزمته هذا الغلام - يعنى ابن عباس - وتركت الأكاير من أصحاب رسول الله، قال: إني رأيت سبعين رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تدارعوا في أمر صاروا إلى قول ابن عباس". وروى الأعمش عن أبي وائل قال: "استخلف على عبد الله بن عباس على الموسم فقرأ في خطبته سورة البقرة - وفي رواية: سورة النور - ففسرها تفسيراً لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا" وكان على بن أبي طالب يثنى على تفسير ابن عباس ويقول: "كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق وبالجملة.. فقد كانت حياة ابن عباس حياة علمية، يتعلم ويعلم، ولم يشتغل

لإمارة إلا قليلاً لما استعمله على البصرة، والحق: أن ابن عباس قد ظهر فيه النبوغ العربي بأكمل معانيه. علماً، وفصاحة، وسعة اطلاع في نواح علمية مختلفة، ولا سيما فهمه لكتاب الله تعالى. وخير ما يُقال فيه ما قاله ابن عمر رضى الله عنهما: "ابن عباس أعلم أمة محمد بما نزل على محمد".

* * *سأله فقال: كانت السموات رتقاً لا تمطر، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت، ففتق هذه بالمطر، وهذه بالنبات، فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره فقال: قد كنتُ أقول: ما يعجبني جرأة ابن عباس على تفسير القرآن، فالآن قد علمتُ أنه أوتيَ علماً.

هذه هي أهم الأسباب التي ترجع إليها شهرة ابن عباس في التفسير، يضاف إلى ذلك كونه من أهل بيت النبوة، منبع الهداية، ومصدر النور، وما وهبه الله من قريحة وقادة، وعقل راجح، ورأى صائب، وإيمان راسخ، ودين متين. أسباب نبوغه:

ونستطيع أن نرجع هذه الشهرة العلمية، وهذا النبوغ الواسع الفيض، إلى أسباب نجمها فيما يلي:

أولاً: دعاء النبي صلى الله عليه وسلم له بقوله: "اللهم علمه الكتاب والحكمة"، وفي رواية أخرى: "اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل"، والذي يرجع إلى كتب التفسير بالمأثور، يرى أثر هذه الدعوة النبوية، يتجلى واضحاً فيما صح عن ابن عباس رضى الله عنه.

ثانياً: نشأته في بيت النبوة، وملازمته لرسول الله صلى الله عليه وسلم من عهد التمييز، فكان يسمع منه الشيء الكثير، ويشهد كثيراً من الحوادث والظروف التي نزلت فيها آيات القرآن.

ثالثاً: ملازمته لأكابر الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، يأخذ عنهم ويروى لهم، ويعرف منهم مواطن نزول القرآن، وتواريخ التشريع، وأسباب النزول، وبهذا استعاض عما فاتته من العلم بموت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتحدث بهذا ابن عباس عن نفسه فقال: "وجدتُ عامة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الأنصار، فإن كنتُ لآتى الرجل فأجده نائماً، لو شئتُ أن يُوقظ لى لأوقظ، فأجلس على بابه تسفى على وجهى الريح حتى يستيقظ متى ما استيقظ، وأسأله عما أريد، ثم أنصرف".

رابعاً: حفظه للغة العربية، ومعرفته لغريبها، وأدابها، وخصائصها، وأساليبها، وكثيراً ما كان يستشهد للمعنى الذى يفهمه من لفظ القرآن بالبيت والأكثر من الشعر العربى.

خامساً: بلوغه مرتبة الاجتهاد، وعدم تحرجه منه، وشجاعته فى بيان ما يعتقد أنه الحق، دون أن يأبه لملامة لائم ونقد ناقد، ما دام يثق بأن الحق فى جانبه، وكثيراً ما انتقد عليه ابن عمر جرأته على تفسير القرآن، ولكن لم ترق إليه همة نقده، بل ما لبث أن رجع إلى قوله، واعترف بمبلغ علمه، فقد روى أن رجلاً أتى ابن عمر يسأله عن معنى قوله تعالى:

{أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا} [الأنبياء: ٣٠] .. فقال: اذهب إلى ابن عباس ثم اسأله فذهب فسأله

فقال: كانت السموات رتقاً لا تمطر، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت، ففتق هذه بالمطر، وهذه بالنبات، فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره فقال: قد كنت أقول: ما يعجبني جراءة ابن عباس على تفسير القرآن، فالآن قد علمت أنه أوتي علماً.

هذه هي أهم الأسباب التي ترجع إليها شهرة ابن عباس في التفسير، يضاف إلى ذلك كونه من أهل بيت النبوة، منبع الهداية، ومصدر النور، وما وهبه الله من قريحة وقادة، وعقل راجح، ورأى صائب، وإيمان راسخ، ودين متين.

*قيمة ابن عباس في تفسير القرآن:

تتبين قيمة ابن عباس في التفسير، من قول تلميذه مجاهد: "إنه إذا فسّر الشئ رأيت عليه النور"، ومن قول عليّ رضي الله عنه يُثنى عليه في تفسيره: "كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق"، ومن قول ابن عمر: "ابن عباس أعلم أمة محمد بما نزل على محمد"، ومن رجوع بعض الصحابة وكثير من التابعين إليه في فهم ما أشكل عليهم من كتاب الله، فكثيراً ما توجه إليه معاصروه ليزيل شكوكهم، ويكشف لهم عما عَزَّ عليهم فهمه من كتاب الله

تعالى. ففي قصة موسى مع شعيب أشكل على بعض أهل العلم، أي الأجلين قضى موسى؟ هل كان ثمان سنين؟ أو أنه أتم عشرًا؟ ولما لم يقف على رأى يم شطر ابن عباس، الذي هو بحق ترجمان القرآن، ليسأله عما أشكل عليه،

اتهم الأستاذ جولدزيهر والأستاذ أحمد أمين لابن عباس وغيره من الصحابة بالتوسع في الأخذ عن أهل الكتاب:

أ يروى الطبري في تفسيره، عن سعيد بن جبيرة قال: "قال يهودى بالكوفة - وأنا أتجهز للحج - إنى أراك رجلاً تتبع العلم، فأخبرنى أى الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا أعلم، وأنا الآن قادم على حبر العرب - يعنى ابن عباس - فسأله عن ذلك، فلما قدمت مكة سألت ابن عباس عن ذلك وأخبرته بقول اليهودى، فقال ابن عباس: قضى أكثرهما وأطيبهما، إنَّ النبى إذا وعد لم يُخلف، وقال سعيد: فقدمت العراق فلقيت اليهودى فأخبرته فقال: صدق وما أنزل على موسى، هذا والله العالم.

وهذا عمر رضى الله عنه يسأل الصحابة عن معنى آية من كتاب الله، فلما لم يجد عندهم جواباً مرضياً رجع إلى ابن عباس فسأله عنها، وكان يثق بتفسيره، وفي هذا يروى الطبري: "أن عمر سأل الناس عن هذه الآية - يعنى: {أَيُّودٌ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ} [البقرة: ٢٦٦] ... الآية، فما وجد أحداً يشفيه، حتى قال ابن عباس وهو خلفه: يا أمير المؤمنين؛ إنى أجد فى نفسى منها شيئاً، فتلفت إليه فقال: تحوّل ههنا، لِمَ تحقر نفسك؟ قال: هذا مثلٌ ضربه الله عزّ وجل فقال: أيودٌ أحدكم أن يعمل عمره بعمل أهل الخير وأهل السعادة، حتى إذا كان أحوج ما يكون إلى أن يختمه بخير

حين فى عمره واقترب أجله، ختم ذلك بعمل من عمل أهل الشقاء، فأفسده كله، فحرقه أحوج ما كان إليه".

رجوع ابن عباس إلى أهل الكتاب:

كان ابن عباس كغيره من الصحابة الذين اشتهروا بالتفسير، يرجعون فى فهم معانى القرآن إلى ما سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإلى ما يفتح الله به عليهم من طريق النظر والاجتهاد، مع الاستعانة فى ذلك بمعرفة أسباب النزول والظروف والملابسات التى نزل فيها القرآن. وكان رضى الله عنه يرجع إلى أهل الكتاب ويأخذ عنهم، بحكم اتفاق القرآن

مع التوراة والإنجيل فى كثير من المواضع التى أجملت فى القرآن وفُصّلت فى التوراة أو الإنجيل، ولكن كما قلنا فيما سبق: إن الرجوع إلى أهل الكتاب كان فى دائرة محدودة ضيقة، تتفق مع القرآن وتشهد له، أما ما عدا ذلك مما يتنافى مع القرآن، ولا يتفق مع الشريعة الإسلامية، فكان ابن عباس لا يقبله ولا يأخذ به.

وسؤال عمر له مع الصحابة عن تفسير قوله تعالى: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} وجوابه بالجواب المشهور عنه، يدل على أن ابن عباس كان يستخرج خفى المعانى التى يشير إليها القرآن، ولا يدركها إلا من نفعه الله بنفحة من روحه، وكثيراً ما

ظهر ابن عباس فى المسائل المعقدة فى التفسير بمظهر الرجل المُلهم الذى ينظر إلى الغيب من ستر رقيق، كما وصفه على رضى الله عنه، الأمر الذى جعل الصحابة يُقدِّرون ابن عباس ويتقون بتفسيره، ولقد وجد هذا التقدير صداه فى عصر التابعين، فكانت هناك مدرسة يتلقى تلاميذها التفسير عن ابن عباس. استقرت هذه المدرسة بمكة، ثم غدت بعلمها الأمصار المختلفة، ما زال تفسير ابن عباس يلقى من المسلمين إعجاباً وتقديراً، إلى درجة أنه إذا صح النقل عن ابن عباس لا يكادون يعدلون عن قوله إلى قول آخر. وقد صرَّح الزركشي بأن قول ابن عباس مُفدَّم على قول غيره من الصحابة عند تعارض ما جاء عنهم فى التفسير.

اتهم الأستاذ جولدزيهر والأستاذ أحمد أمين لابن عباس وغيره من الصحابة بالتوسع فى الأخذ عن أهل الكتاب:

وأنا لنجد فى كتاب "المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن" مبلغ اتهام مؤلفه "جولدزيهر" لابن عباس بتوسعه فى الأخذ عن أهل الكتاب، مخالفاً ما ورد من النهى عن ذلك فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تُصدِّقوا أهل الكتاب ولا تُكذِّبواهم" ونرى أن نذكر عبارة المؤلف بنصها، ليتضح مبلغ اتهامه لابن عباس، ثم نرد عليه بعد ذلك.

رجوع ابن عباس إلى الشعر القديم:

كان ابن عباس رضى الله عنه يرجع فى فهم معانى الألفاظ الغريبة التى وردت فى القرآن إلى الشعر الجاهلى، وكان غيره من الصحابة يسلك هذا الطريق فى فهم غريب القرآن، ويحض على الرجوع إلى الشعر العربى القديم، لئىستعان به على فهم معانى

لألفاظ القرآنية الغريبة، فهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يسأل أصحابه عن معنى قوله تعالى فى الآية [٤٧] من سورة النحل: {أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ} فيقوم له شيخ من هذيل فيقول له: هذه لغتنا، التَّخَوُّفُ: التَّنْقِصُ، فيقول له عمر: هل تعرف العرب ذلك فى أشعارها؟ فيقول له: نعم، ويروى قول الشاعر:

تَخَوُّفَ الرَّحْلِ مِنْهَا تَامِكاً قَرِداً ... كَمَا تَخَوَّفَ عُوْدَ النَّبْعَةِ السَّوْنُ

فيقول عمر رضى الله عنه لأصحابه: "عليكم بديوانكم لا تضلُّوا، قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية، فإن فيه تفسير كتابكم، ومعانى كلامكم".

الرواية عن ابن عباس ومبلغها من الصحة:

رُوِيَ عن ابن عباس رضى الله عنه فى التفسير ما لا يُحصَى كثرة، وتعددت الروايات عنه، واختلفت طرقها، فلا تكاد تجد آية من كتاب الله تعالى إلا ولاين عباس رضى الله عنه فيها قول أو أقوال، الأمر الذى جعل نُقَاد الأثر ورواة الحديث يقفون إزاء هذه الروايات التى جاوزت الحد وقفة المرتاب، فتنبِّعوا سلسلة الرواة فعدَّلوا العُدول، وجرَّحوا الضُعفاء، وكشفوا للناس عن مقدار هذه الروايات قوة وضعفاً. وأرى أن أسوق هنا أشهر الروايات عن ابن عباس، ثم أُبين مبلغها من الصحة أو الضعف، لنعلم إلى أى حد وصل الوضع والاختلاق على ابن عباس رضى الله عنه. وهذه هى أشهر الطرق:

أولها: طريق معاوية بن صالح، عن على بن أبى طلحة، عن ابن عباس، وهذه هى أجود الطرق عنه، وفيها قال الإمام أحمد رضى الله عنه: "إن بمصر صحيفة فى التفسير رواها على بن أبى طلحة، لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً". وقال الحافظ ابن حجر: "وهذه النسخة كانت عند أبى صالح كاتب الليث، رواها عن معاوية بن صالح، عن على بن أبى طلحة، عن ابن عباس، وهى عند البخارى عن أبى صالح، وقد اعتمد عليها فى صحيحه فيما يُعلِّقه عن ابن عباس".

وكثيراً ما اعتمد على هذه الطريق ابن جرير الطبرى، وابن أبى حاتم، وابن المنذر بوسائط بينهم وبين أبى صالح. ومسلم صاحب الصحيح وأصحاب السنن جميعاً يحتجون بعلى بن أبى طلحة

طعن بعض النقاد على هذه الطريق:

ولقد حاول بعض النقاد أن يُقلل من قدر هذه الطريق فقال: "إن ابن أبي طلحة لم يسمع من ابن عباس التفسير، وإنما أخذه عن مجاهد أو سعيد ابن جبير" وعلى هذا فهي طريق منقطعة لا يُرکن إليها، ولا يُعَوَّل عليها.

وقد استغل هذا القول الأستاذ "جولزبهر" في كتابه "المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن" فقال: "صرح النقدة المسلمون بأن ذلك الرجل - علي بن أبي طلحة - لم يسمع التفسير الذي تضمنه كتابه مباشرة من ابن عباس، وهكذا فإنه حتى في صحة القسم الخاص بالتفسير الأكثر تصديقاً، يحكم النقدة المسلمون بهذا الحكم فيما يتعلق بصحة نسبه لابن عباس على أنه هو المصدر الأول له" اهـ.

*تفنيد هذا الطعن:

ويظهر لنا أن الأستاذ "جولزبهر"، جهل أو تجاهل ما ردَّ به النقاد المعتبرون على هذا الظن الذي لا قيمة له، فقد فند ابن حجر هذا النقد بقوله: "بعد أن عرفت الوساطة وهو ثقة فلا ضير في ذلك".

وقال صاحب إيثار الحق: "وقال الذهبي في الميزان: وقد روى - يعنى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس تفسيراً كثيراً ممتعاً، والصحيح عندهم أن روايته عن مجاهد عن ابن عباس، وإن كان يرسلها عن ابن عباس فمجاهد ثقة يُقبل". وجملة القول: فهذه أصح الطرق في التفسير عن ابن عباس، وكفى بتوثيق البخاري لها واعتماده عليها شاهداً على صحتها.

ثانيها: طريق قيس بن مسلم الكوفي، عن عطاء بن السائب عن سعيد ابن جبير، عن ابن عباس. وهذه الطريق صحيحة على شرط الشيخين، وكثيراً ما يُخرَج منها الفريابي والحاكم في مستدرکه.

ثالثها: طريق ابن إسحاق صاحب السير، عن محمد بن أبي محمد مولى آل زيد بن ثابت، عن عكرمة، أو سعيد بن جبير عن ابن عباس، وهي طريق جيدة وإسنادها حسن وقد أخرج منها ابن جرير وابن أبي حاتم كثيراً، وأخرج الطبراني منها في معجمه الكبير.

رابعها: طريق إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير، تارة عن أبي مالك، وتارة عن أبي صالح عن ابن عباس. وإسماعيل السدي مُختلف فيه، وحديثه عند مسلم وأهل السنن الأربعة، وهو تابعي شيعي. وقال السيوطي: "روى عن السدي الأئمة مثل الثوري وشعبة، لكن التفسير الذي جمعه رواه أسباط بن نصر، وأسباط لم يتفقوا عليه، غير أن أمثل التفاسير تفسير السدي".

وابن جرير يُورد في تفسيره كثيراً من تفسير السدي عن أبي مالك عن أبي صالح عن ابن عباس، ولم يُخرَج منه ابن أبي حاتم شيئاً، لأنه التزم أن يُخرَج أصح ما ورد.

خامسها: طريق عبد الملك بن جريج، عن ابن عباس، وهي تحتاج إلى دقة في البحث، ليعرف الصحيح منها والسقيم، فإن ابن جريج لم يقصد الصحة فيما جمع، وإنما روى ما ذُكر في كل آية من الصحيح والسقيم، فلم يتميز في روايته الصحيح من غيره، وقد روى عن ابن جرير هذا جماعة كثيرة، منهم بكر بن سهل الدميطي، عن عبد الغني بن سعيد، عن موسى بن محمد، عن ابن جريج عن ابن عباس، ورواية بكر بن سهل أطول الروايات عن ابن جريج وفيها نظر. ومنهم محمد بن ثور، عن ابن جريج، عن ابن عباس، روى ثلاثة أجزاء كبار. ومنهم الحجاج بن محمد عن ابن جريج، روى جزءاً وهو صحيح متفق عليه. سادسها: طريق الضحاك بن مزاحم الهلالي عن ابن عباس، وهي غير مرضية، لأنه وإن وثقه نفر فطريقه إلى ابن عباس منقطعة، لأنه روى عنه ولم يلقه، فإن انضم إلى ذلك رواية بشر بن عمار، عن أبي روق، عن الضحاك، فضعيفة لضعف بشر، وقد أخرج من هذه النسخة كثيراً ابن جرير وابن أبي حاتم. وإن كان من رواية جويبر عن

لضحاك فأشد ضعفاً، لأن جويبر شديد الضعف متروك، ولم يُخرَج ابن جرير ولا ابن أبي حاتم من هذه الطريق شيئاً، إنما خرَّجها ابن مردويه، وأبو الشيخ بن حبان.

سابعها: طريق عطية العوفى، عن ابن عباس، وهى غير مرضية، لأن عطية ضعيف ليس بواهٍ، وربما حسن له الترمذى.

وهذه الطريق قد أخرج منها ابن جرير، وابن أبى حاتم كثيراً.

ثامنها: طريق مقاتل بن سليمان الأزدي الخراسانى، وهو المفسر الذى يُنسب إلى الشافعى أنه قال فيه: "إن الناس عيال عليه فى التفسير" ومع ذلك فقد ضَعَّفوه، وقالوا: إنه يروى عن مجاهد وعن الضحاك ولم يسمع منهما. وقد كذَّبه غير واحد، ولم يُوثِّقه أحد، واشتُهر عنه التجسيم والتشبيه، وتكلم عنه السيوطى. فقال: "إن الكلبى يُفضَّل عليه، لما فى مقاتل من المذاهب الرديئة" وقد سئل وكيع عن تفسير مقاتل فقال: "لا تنظروا فيه، فقال السائل: ما أصنع به؟ قال: ادفنه" - يعنى التفسير - وقال أحمد بن حنبل: لا يعجبني أن أروى عن مقاتل بن سليمان شيئاً. وبالجملة فإن من استحسن تفسير مقاتل كان يُضَعِّفه ويقول: "ما أحسن تفسيره لو كان ثقة".

المحاضرة الخامسة

تابع المفسرين من الصحابة

عبد الله بن مسعود

هو عبد الله بن مسعود بن غافل، يصل نسبه إلى مُضَرَ، ويُكْنَى بأبي عبد الرحمن الهذلي، وأمه أم عبد بنت عبدود، من هذيل، وكان يُنسب إليها أحياناً فيقال ابن أم عبد. كان رحمه الله خفيف اللحم، قصيراً، شديد الأذمة، أسلم قديماً. روى الأعمش، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه قال: قال عبد الله - يعنى ابن مسعود -: "لقد رأيتني سادس ستة ما على ظهر الأرض مسلم غيرنا" وهو أول من جهر بالقرآن بمكة وأسمعه قريشاً بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأوذى في الله من أجل ذلك، ولما أسلم عبد الله ابن مسعود أخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه فكان يخدمه في أكثر شؤونه، وهو صاحب ظهوره وسواكه ونعله، يلبسه إياه إذا قام، ويخلعه ويحمله في ذراعه إذا جلس، ويمشى أمامه إذا سار، ويستتره إذا اغتسل، ويوقظه إذا نام، ويلج عليه داره بلا حجاب، حتى لقد ظنه أبو موسى الأشعري رضى الله عنه من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ففي البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري رضى الله عنه قال: "قدمت أنا وأخي من اليمن فمكثنا حيناً لا نرى ابن مسعود وأمه إلا من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، لما نرى من كثرة دخوله ودخول أمه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولزومه له". وهاجر إلى الحبشة، ثم إلى المدينة، وصلى إلى القبلتين، وشهد بدرًا، وأحدًا، والخندق، وبيعة الرضوان، وسائر المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وشهد اليرموك بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهو الذي أجهز على أبي جهل يوم بدر، وقد شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة وشهد له بالفضل وعلو المنزلة، يدل على ذلك ما أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن عليّ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو كنت مؤمراً أحدًا دون مشورة المؤمنين لأمرت ابن أم عبد". وقد ولى بيت المال بالكوفة لعمر وعثمان، وقدم المدينة في آخر عمره، ومات بها سنة اثنتين وثلاثين، ودُفن بالبقيع ليلاً، تنفيذاً لوصيته بذلك، وكان عمره يوم وفاته، بضعاً وستين سنة.

مبلغه من العلم

ان ابن مسعود من أحفظ الصحابة لكتابة الله، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب أن يسمع منه القرآن، وقد أخبر هو بنفسه عن ذلك فقال: "قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اقرأ على سورة النساء"، قال: قلت: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: "إني أحب أن أسمع من غيري"، فقرأت عليه حتى بلغت: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] فاضت عيناه - صلى الله عليه وسلم. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من سره أن يقرأ القرآن رطباً كما أنزل، فليقرأه على قراءة ابن أم عبد". وكان ابن مسعود يعرف ذلك من نفسه ويعتني به، حتى إنه كره لزيد بن ثابت نسخ المصاحف في عهد عثمان، وكان يرى أنه أولى منه بذلك، وقد قال في هذا: "يا معشر المسلمين، أعزل عن نسخ المصاحف ويتولاه رجل والله لقد أسلمت وإنه لفي صلب رجل كافر؟" - يريد زيد بن ثابت - . وعن مسروق أنه قال: "انتهى علم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ستة: عمر، وعليّ، وعبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، وأبي الدرداء، وزيد بن ثابت، ثم انتهى علم هؤلاء الستة إلى رجلين: عليّ، وعبد الله"، وقيل لحذيفة: أخبرنا برجل قريب السم والهدى من رسول الله صلى الله عليه وسلم نأخذ عنه، فقال: "لا نعلم أحدًا أقرب سمًا ولا هذبًا برسول الله صلى الله عليه وسلم من ابن أم عبد، ولقد علم المحفوظون من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، أن ابن أم عبد أقربهم إلى الله وسيلة". ولما سيّره عمر رضى الله عنه إلى الكوفة كتب إلى أهلها: "إني قد بعثتُ عمار بن ياسر أميراً، وعبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً، وهما من النجباء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل بدر فاقتدوا بهما، وأطيعوا واسمعوا قولهما، وقد آثرتكم بعبد الله على نفسي". وقد أقام رضى الله عنه بالكوفة يأخذ عنه أهلها الحديث والتفسير والفقه، وهو معلمهم وقاضيه، ومؤسس طريقتهم في الاعتداد بالرأى حيث لا يوجد النص، ولما قدم على الكوفة، حضر عنده قوم وذكروا له بعض قول عبد الله وقالوا: يا أمير المؤمنين؛ ما رأينا رجلاً أحسن خلقاً، ولا أرفق تعليماً، ولا أحسن مجالسة، ولا أشد ورعاً من ابن مسعود، قال عليّ: "أنشدكم الله أهو الصدق من قلوبكم؟" قالوا: نعم،

قال: "اللهم اشهد أنى أقول مثل ما قالوا وأفضل".

ومن هذا كله يتبين لنا مكانة ابن مسعود رضى الله عنه فى العلم، ومنزلته بين إخوانه من الصحابة، فالكل يشهد له ويُقدِّمه على غيره، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده.

قيمة ابن مسعود فى التفسير:

روى ابن جرير وغيره عن ابن مسعود أنه قال: "كان الرجل منا إذا تعلَّم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن"، ومن هذا الأثر يتضح لنا مقدار حرص ابن مسعود على تفهم كتاب الله تعالى والوقوف على معانيه، وعن مسروق قال: "قال عبد الله - يعنى ابن مسعود -: والذى لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت وأين نزلت، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله منى تناله المطايا لأتيته"، وهذا الأثر يدل على إحاطة ابن مسعود بمعانى كتاب الله، وأسباب نزول الآيات، وحرصه على تعرف ما عند غيره من العلم بكتاب الله تعالى ولو لقى عنثاً ومشقة، وقال مسروق: كان عبد الله يقرأ علينا السورة ثم يحدثنا فيها ويفسرها عامة النهار، وروى أبو نعيم فى الحلية عن أبى البحتري قال: قالوا لعلّى: أخبرنا عن ابن مسعود، قال: علم القرآن والسنة ثم انتهى، وكفى بذلك علماً، وقال عقبه بن عامر: ما أدرى أحداً أعلم منه بما نزل على مح د امد ابن عبد الله، فقال أبو موسى: إن نزل ذلك، فإنه كان يسمع حين لا نسمع، ويدخل حين لا ندخل. وصح عن ابن مسعود أنه قال: أخذت من قى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين سورة، وقال أبو وائل: لما حرق عثمان المصاحف بلغ ذلك عبد الله فقال: لقد علم أصحاب محمد أنى أعلمهم بكتاب الله وما أنا بخيرهم، ولو أنى أعلم أن أحداً أعلم بكتاب الله منى تبلغه الإبل لأتيته، قال أبو وائل: ففقت إلى الحلق أسمع ما يقولون، فما سمعت أحداً من أصحاب محمد ينكر ذلك عليه... وغير هذا كثير من الآثار التى تشهد لمنزلة ابن مسعود العالية فى التفسير، وإذا كان ابن مسعود يعلم هذا من نفسه ويتحدث به، العلم، ومقدار فهمه لكتاب الله، وعَلَّ ذلك أبو موسى الأشعري رضى الله عنه، بأنه كان يسمع حين لا يتيسر لهم السماع، ويدخل حين لا يؤذن لهم بالدخول، الأمر الذى جعله أوفر حظاً فى الأخذ عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وأعظم نصيباً من الاعتراف من منهل النبوة الفيّاض، ولئن صح عن أبى الدرداء أنه قال بعد موت ابن مسعود: ما ترك بعده مثله، لهى شهادة منه على

مقدار علمه، وسمو مكانته بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبالجملة فابن مسعود كما قيل: أعلم الصحابة بكتاب الله تعالى، وأعرفهم بمحكمه ومنتشابهه وحلاله وحرامه، وقصصه وأمثاله، وأسباب نزوله، قرأ القرآن فأحلّ حلاله وحرّم حرامه، فقيه فى الدين، عالم بالسنة، بصير بكتاب الله.

*الرواية عن ابن مسعود ومبلغها من الصحة:

ابن مسعود أكثر من روى عنه فى التفسير من الصحابة بعد ابن عباس رضى الله عنه، قال السيوطى فى الإتقان: وأما ابن مسعود فقد روى عنه أكثر مما روى عن علىّ، وقد حمل علم ابن مسعود فى التفسير أهل الكوفة نظراً لوجوده بينهم،

لس إليهم فيأخذون عنه ويروون له، فمن رواه مسروق بن الأجدع الهمداني، وعلقمة بن قيس النخعي، والأسود بن يزيد، وغيرهم من علماء الكوفة الذين تتلمذوا له ورووا عنه. وسيأتى الكلام على هؤلاء جميعاً - إن شاء الله تعالى - عند الكلام عن التفسير فى عصر التابعين، وقد وردت أسانيد كثيرة تنتهى إلى ابن مسعود، نجدها مبنوثة فى كتب التفسير بالمأثور وكتب الحديث، ومن هذه الروايات ما يمكن الاعتماد عليه والثقة به، ، كما تتبَّعوا غيرها بالنقد تجريباً وتعديلاً

وهذه هى أشهر الطرق عن ابن مسعود:

أولاً: طريق الأعمش، عن أبى الضحى، عن مسروق، عن ابن مسعود. وهذه الطريق من أصح الطرق وأسلمها، وقد اعتمد عليها البخارى فى صحيحه.

ثانياً: طريق مجاهد، عن أبى معمر، عن ابن مسعود، وهذه أيضاً طريق صحيحة لا يعترِبها الضعف. وقد اعتمد عليها البخارى فى صحيحه أيضاً.

ثالثاً: طريق الأعمش، عن أبي وائل، عن ابن مسعود. وهذه أيضاً طريق صحيحة يُخَرِّج البخارى منها، وكفى بتخريج البخارى شاهداً على صحته وصحة ما سبق.

رابعاً: طريق السدى الكبير، عن مرة الهمداني، عن ابن مسعود. وهذه الطريق يُخَرِّج منها الحاكم فى مستدرکه، ويصح ما يُخَرِّجُه. وابن جرير يُخَرِّج منها فى تفسيره كثيراً، وقد علمت فيما مضى قيمة السدى الكبير فى باب الرواية.

خامساً: طريق أبى روق، عن الضحاك، عن ابن مسعود، وابن جرير يُخَرِّج منها فى تفسيره أيضاً. وهذه الطريق غير مرضية، لأن الضحاك لم يلق ابن مسعود فهى طريق منقطعة.

٣- على بن أبى طالب

* ترجمته:

هو أبو الحسن، على بن أبى طالب بن عبد المطلب، القرشى الهاشمى، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصهره على ابنته فاطمة، وذريته صلى الله عليه وسلم منها. أمه فاطمة بنت أسد بن هاشم. وهو أول هاشمى وُلِدَ من هاشميين، ورابع الخلفاء الراشدين، وأول خليفة من بنى هاشم، وهو أول مَنْ أسلم من الأحداث وصدَّق برسول الله صلى الله عليه وسلم. هاجر إلى المدينة. وموقفه من الهجرة مشهور، قيل: ونزل فيه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧] .. وقد شهد على المشاهد كلها إلا تبوك، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم خلفه على أهله، وله فى الجميع بلاء عظيم ومواقف مشهورة، وقد أعطاه الرسول صلى الله عليه وسلم اللواء فى مواطن كثيرة، وقال يوم خيبر: "لأعطين الراية رجلاً يفتح الله على يديه، يُحب الله ورسوله، ويُحبه الله ورسوله"، ثم أعطاها لعلى رضى الله

عنه، وآخاه رسول الله صلى الله عليه وسلم لما آخى بين أصحابه وقال له: "أنت أخى فى الدنيا والآخرة" وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، اجتمع فيه من الفضائل ما لم يحظ به غيره، فمن ورع فى الدين، إلى زهد فى الدنيا، إلى قرابة وصهر برسول الله صلى الله عليه وسلم، إلى علم جم وفضل غزير، وقد توفى رحمه الله فى رمضان سنة أربعين من الهجرة، مقتولاً بيد عبد الرحمن بن ملجم الخارجى، وعمره ثلاث وستون سنة، وقيل غير ذلك.

مبلغه من العلم:

كان رضى الله عنه بحراً فى العلم، وكان قوى الحُجَّة، سليم الاستنباط، أوتىَ الحظ الأوفر من الفصاحة والخطابة والشعر، وكان ذا عقل قضائى ناضج، وبصيرة نافذة إلى بواطن الأمور، وكثيراً ما كان يرجع إليه الصحابة فى فهم ما خفى واستجلاء ما أشكل، وقد ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم قضاء اليمن، ودعا له بقوله: "اللهم ثبّت لسانه واهد قلبه"، فكان موقفاً ومُسَدِّداً، فيصلاً فى المعضلات، حتى ضُرب به المثل فقيل: "قضية ولا أبا حسن لها"، ولا عجب، فقد تربي فى بيت النبوة، وتغذى بلبان معارفها، وعمته مشكاة أنوارها. روى علقمة عن ابن مسعود قال: كنا نتحدث أن أفضى أهل المدينة على بن أبى طالب. وقيل لعطاء: أكان فى أصحاب محمد أعلم من على؟ قال: لا، والله لا أعلمه، وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: "إذا ثبت لنا الشئ عن على لم نعدل عنه إلى غيره".

والذى يرجع إلى أقضية على رضى الله عنه وخطبه ووصاياه، يرى أنه قد وهب عقلاً ناضجاً، وبصيرة نافذة، وحظاً وافراً من العلم وقوة البيان

الرواية عن على ومبلغها من الصحة:

كثرت الرواية فى التفسير عن على رضى الله عنه، كثرة جاوزت الحد، الأمر الذى لفت أنظار العلماء النُقَّاد، وجعلهم يتتبعون الرواية عنه بالبحث والتحقيق، ليميزوا ما صح من غيره.

وما صح عن عليّ في التفسير قليل بالنسبة لما وُضع عليه، ويرجع ذلك إلى غُلاة الشيعة، الذين أسرفوا في حبه فاختلفوا عليه ما هو برئ منه، إما ترويحاً لمذهبه وتدعيماً له، وإما لظنهم الفاسد أن الإغراق في نسبة الأقوال العلمية إليه يُعلي من قدره، ويرفع من شأنه العلمي. وأظن أن ما نُسب إلى عليّ من قوله: "لو شئتُ أن أُوقِرَ سبعين بغيراً من تفسير أم القرآن لعلت" لا أصل له، اللهم إلا في أوهام الشيعة، الذين يغالون في حبه، ويتجاوزون الحد في مدحه. ثم هناك ناحية أخرى أغرت الوُضّاع بالكذب عليه، تلك الناحية هي نسبه إلى بيت النبوة، ولا شك أن هذه الناحية، تُكسب الموضوع قبولاً، وتعطيه رواجاً وذبوعاً على ألسن الناس، والحق أن كثرة الوضع على عليّ رضی الله عنه أفسدت الكثير من علمه، ومن أجل ذلك لم يعتمد أصحاب الصحيح فيما يروونه عنه إلا على ما كان من طريق الأثبات من أهل بيته، أو من أصحاب ابن مسعود، كعبدة السلماني وشريح، وغيرهما. وهذه أهم الطرق عن عليّ في التفسير:

أولاً: طريق هشام، عن محمد بن سيرين، عن عبيدة السلماني، عن عليّ. طريق صحيحة، يُخرَج منها البخاري وغيره. طريق صحيحة جداً. حتى عدّها بعضهم أصح الأسانيد مطلقاً، ولكن لم تشتهر هذه الطريق اشتهار الطريقتين السابقتين نظراً لما أُلصقه الضعفاء، والكذّابون بزین العابدين من الروايات الباطلة.

أطلق الحاكم في المستدقيمة التفسير المأثور عن الصحابة

رك: أن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي، له حكم المرفوع، فكأنه رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم، وعزا هذا القول للشيخين حيث يقول في المستدرك: "ليعلم طالب الحديث، أن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل - عند الشيخين - حديث مسند" ولكن قيّد ابن الصلاح، والنووي، وغيرهما، هذا الإطلاق، بما يرجع إلى أسباب النزول، وما لا مجال للرأى فيه، قال ابن الصلاح في مقدمته ص (٢٤) : "ما قيل من أن تفسير الصحابي حديث مسند، فإنما ذلك في تفسير يتعلق بسبب نزول آية يخبر به الصحابي، أو نحو ذلك مما لا يمكن أن يؤخذ إلا عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا مدخل للرأى فيه، كقول جابر رضي الله عنه: كانت اليهود تقول: من أتى امرأته من دبرها في قبلها جاء الولد أحول، فأنزل الله عزّ وجلّ: {نِسَاءُكُمْ حَرِّمْ لَكُمْ} [البقرة: ٢٢٣] ... الآية، فأما سائر تفاسير الصحابة التي لا تشتمل على إضافة شيء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فمعدودة في الموقوفات".

ولكننا نجد الحاكم نفسه قد صرّح في "معرفة علوم الحديث" بما ذهب إليه ابن الصلاح وغيره حيث قال: ومن الموقوفات ما حدثناه أحمد بن كامل بسنده عن أبي هريرة في قوله: {لَوْ آحَاةٌ لِلْبَشَرِ} [المدثر: ٢٩] .. قال: تلقاهم جهنم يوم القيامة فتفحهم لفحة فلا تترك لهماً على عظم، قال: فهذا وأشباهه يُعدّ في تفسير الصحابة من الموقوفات

، فأما ما نقول: إن تفسير الصحابة مسند، فإنما نقوله في غير هذا النوع.. " ثم أورد حديث جابر في قصة اليهود وقال: "وفهذا وأشباهه مسند ليس بموقوف، فإن الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل فأخبر عن آية من القرآن أنها نزلت في كذا فإنه حديث مسند وبعد هذا كله نخلص بهذه النتائج.

أولاً: تفسير الصحابي له حكم المرفوع، إذا كان مما يرجع إلى أسباب النزول، وكل ما ليس للرأى فيه مجال، أما ما يكون للرأى فيه مجال، فهو موقوف عليه ما دام لم يسنده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثانياً: ما حُكِمَ عليه بأنه من قبيل المرفوع لا يجوز رده اتفاقاً، بل يأخذه المفسر ولا يعدل عنه إلى غيره بأية حال.

ثالثاً: ما حُكِمَ عليه بالوقف، تختلف فيه أنظار العلماء:

فذهب فريق: إلى أن الموقوف على الصحابي من التفسير لا يجب الأخذ به لأنه لمَّا لم يرفعه، عُلِمَ أنه اجتهد فيه، والمجتهد يُخطئ ويُصيب، والصحابة في اجتهادهم كسائر المجتهدين.

وذهب فريق آخر إلى أنه يجب الأخذ به والرجوع إليه، لظن سماعهم له من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولأنهم إن فسّروا برأيهم فرأيهم أصوب، لأنهم أدرى الناس بكتاب الله، إذ هم أهل اللسان، ولبركة الصحابة والتخلق بأخلاق النبوة،

ولما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح، لا سيما علماءهم وكبرائهم كالأنمة الأربعة، وعبد الله بن مسعود، وابن عباس وغيرهم.

قال الزركشى في "البرهان": "اعلم أن القرآن قسمان: قسم ورد تفسيره بالنقل، وقسم لم يرد. والأول: إما أن يرد عن النبي صلى الله عليه وسلم، أو الصحابة، أو رؤوس التابعين، فالأول يُبحث فيه عن صحة السند، والثاني يُنظر في تفسير الصحابي، فإن فسره من حيث اللغة فهم أهل اللسان فلا شك في اعتماده، أو بما شاهدوه من الأسباب والقرائن فلا شك فيه". وقال الحافظ ابن كثير في مقدمة تفسيره: "... وحينئذ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنّة، رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدري بذلك، لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لا سيما علماءهم وكبرائهم، كالأنمة الأربعة، والخلفاء الراشدين، والأنمة المهتدين المهديين، وعبد الله بن مسعود رضى الله عنهم".

وهذا الرأي الأخير هو الذى تميل إليه النفس، ويطمئن إليه القلب لما ذكر.

مميزات التفسير في هذه المرحلة

يمتاز التفسير في هذه المرحلة بالمميزات الآتية:

أولاً: لم يُفسر القرآن جميعه، وإنما فسّر بعض منه، وهو ما غمض فهمه وهذا الغموض كان يزداد كلما بُعد الناس عن عصر النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة، فكان التفسير يتزايد تبعاً لتزايد هذا الغموض، إلى أن تم تفسير آيات القرآن جميعها.

ثانياً: قلة الاختلاف بينهم في فهم معانيه، وسنعرض لهذا الموضوع بتوسع فيما بعد إن شاء الله تعالى.

ثالثاً: كانوا كثيراً ما يكتفون بالمعنى الإجمالى، ولا يُلزمون أنفسهم بتفهم معانيه تفصيلاً، فيكفى أن يفهموا من مثل قوله تعالى: {وَفَاكِهَةً وَأَبًّا} [عبس: ٣١] .. أنه تعداد لنعم الله تعالى على عباده.

رابعاً: الاقتصار على توضيح المعنى اللغوى الذى فهموه بأخصر لفظ، مثل قولهم: {غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ} [المائدة: ٣] .. أى غير متعرض لمعصية، فإن زادوا على ذلك فمما عرفوه من أسباب النزول.

خامساً: ندرة الاستنباط العلمى للأحكام الفقهية من الآيات القرآنية وعموم وجود الانتصار للمذاهب الدينية بما جاء فى كتاب الله، نظراً لاتحادهم فى العقيدة، ولأن الاختلاف المذهبى لم يرق إلا بعد عصر الصحابة رضى الله عنهم.

سادساً: لم يُدون شيء من التفسير فى هذا العصر، لأن التدوين لم يكن إلا فى القرن الثانى. نعم أثبت بعض الصحابة بعض التفسير فى مصاحفهم فظنها بعض المتأخرين من وجوه القرآن التى نزل بها من عند الله تعالى.

سابعاً: اتخذ التفسير فى هذه المرحلة شكل الحديث، بل كان جزءاً منه وفرعاً من فروعها، ولم يتخذ التفسير له شكلاً منظماً، بل كانت هذه التفسيرات تُروى منثورة لأيات متفرقة، كما كان الشأن فى رواية الحديث، فحديث صلاة بجانب حديث جهاد، بجانب حديث

ميراث، بجانب حديث فى تفسير آية ... وهكذا.

وليس المعترض أن يعترض علينا بتفسير ابن عباس، فإنه لا تصح نسبته إليه، بل جمعه الفيروز آبادى ونسبة إليه، معتمداً فى ذلك على رواية واهية، هي رواية محمد بن مروان السدى، عن الكلبي، عن أبى صالح، عن ابن عباس وهذه هي سلسلة الكذب كما قيل

المحاضرة السادسة

التفسير في عهد التابعين

ابتداء هذه المرحلة

تنتهي المرحلة الأولى للتفسير بانصرام عهد الصحابة، وتبدأ المرحلة الثانية للتفسير من عصر التابعين الذين تتلمذوا للصحابة فتلقوا غالب معلوماتهم عنه.

وكما اشتهر بعض أعلام الصحابة بالتفسير والرجوع إليهم في استجلاء بعض ما خفى من كتاب الله، اشتهر أيضاً بالتفسير أعلام من التابعين، تكلموا في التفسير، ووضّحوا لمعاصريهم خفى معانيه.

مصادر التفسير في هذا العصر

وقد اعتمد هؤلاء المفسرون في فهمهم لكتاب الله تعالى على ما جاء في الكتاب نفسه، وعلى ما رووه عن الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى ما رووه عن الصحابة من تفسيرهم أنفسهم، وعلى ما أخذوه من أهل الكتاب مما جاء في كتبهم، وعلى ما يفتح الله به عليهم من طريق الاجتهاد والنظر في كتاب الله تعالى.

وقد روت لنا كتب التفسير كثيراً من أقوال هؤلاء التابعين في التفسير، قالوها بطريق الرأي والاجتهاد، ولم يصل إلى علمهم شئ فيها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو عن أحد من الصحابة.

* * وقد قلنا فيما سبق: إن ما نُقل عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة من التفسير لم يتناول جميع آيات القرآن، وإنما فسروا ما غمض فهمه على معاصريهم، ثم تزايد هذا الغموض - على تدرج - كلما بُعد الناس عن عصر النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة، فاحتاج المشتغلون بالتفسير من التابعين إلى أن يكملوا بعض هذا النقص،

فزادوا في التفسير بمقدار ما زاد من غموض، ثم جاء من بعدهم فأتوا تفسير القرآن تبعاً، معتمدين على ما عرفوه من لغة العرب ومناحيهم في القول، وعلى ما صح لديهم من الأحداث التي حدثت في عصر نزول القرآن ... وغير هذا من أدوات الفهم ووسائل البحث

فزادوا في التفسير بمقدار ما زاد من غموض، ثم جاء من بعدهم فأتوا تفسير القرآن تبعاً، معتمدين على ما عرفوه من لغة العرب ومناحيهم في القول، وعلى ما صح لديهم من الأحداث التي حدثت في عصر نزول القرآن ... وغير هذا من أدوات الفهم ووسائل البحث

مدارس التفسير في عصر التابعين:

فتح الله على المسلمين كثيراً من بلاد العالم في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي عهود الخلفاء من بعده، ولم يستقروا جميعاً في بلد واحد من بلاد المسلمين، بل نأى الكثير منهم عن المدينة مشرق النور الإسلامي ثم استقر بهم النوى، موزعين على جميع البلاد التي دخلها الإسلام، وكان منهم الولاة، ومنهم الوزراء، ومنهم القضاة، ومنهم المعلمون، ومنهم غير ذلك

قد حمل هؤلاء معهم إلى هذه البلاد التي رحلوا إليها، ما وعوه من العلم، وما حفظوه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجلس إليهم كثير من التابعين يأخذون العلم عنهم، وينقلونه لمن بعدهم، فقامت في هذه الأمصار المختلفة مدارس علمية، أساتذتها الصحابة، وتلاميذها التابعون.

واشتهر بعض هذه المدارس بالتفسير، وتتلّمذ فيها كثير من التابعين لمشاهير المفسرين من الصحابة، فقامت مدرسة للتفسير بمكة، وأخرى بالمدينة، وثالثة بالعراق، وهذه المدارس الثلاث، هي أشهر مدارس التفسير في الأمصار في هذا العهد.

قال ابن تيمية: "وأما التفسير فأعلم الناس به أهل مكة، لأنهم أصحاب ابن عباس كمجاهد، وعطاء بن أبي رباح، وعكرمة مولى ابن عباس، وغيرهم من أصحاب ابن عباس، كطاووس، وأبي الشعثاء، وسعيد بن جبير، وأمثالهم. وكذلك أهل الكوفة من أصحاب ابن مسعود، ومن ذلك ما تميزوا به عن غيرهم، وعلماء أهل المدينة في التفسير، مثل زيد بن أسلم، الذي أخذ عنه مالك التفسير، وأخذ عنه أيضاً ابنه عبد الرحمن، وعبد الله بن وهب".

وأرى أن أتكلم عن كل مدرسة من هذه المدارس الثلاث، وعن أشهر المفسرين من التابعين الذين أخذوا التفسير عن أساتذة هذه المدارس من الصحابة، فأقول وبالله التوفيق:

أولاً: مدرسة التفسير بمكة

*** قيامها على ابن عباس:**

قامت مدرسة التفسير بمكة على عبد الله بن عباس رضى الله عنهما، فكان يجلس لأصحابه من التابعين، يُفسر لهم كتاب الله تعالى، ويوضح لهم ما أشكل من معانيه، وكان تلاميذه يعون عنه ما يقول، ويروون لمن بعدهم ما سمعوه منه.

*** أشهر رجالها:**

وقد اشتهر من تلاميذ ابن عباس بمكة: سعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة مولى ابن عباس، وطاووس بن كيسان اليماني، وعطاء بن أبي رباح.

وهؤلاء كلهم كانوا من الموالى، وهم يختلفون في الرواية عن ابن عباس قلة وكثرة، كما اختلف العلاء في مقدار الثقة بهم والركون إليهم.

ونسوق الحديث عن كل واحد منهم، ليتضح لنا مكانته في التفسير، ومقدار الاعتماد عليه فيه:

سعيد بن جبير

*** ترجمته:**

هو أبو محمد - أو أبو عبد الله - سعيد بن جبير بن هشام الأسدي الوالبي، مولاهم. كان حبشى الأصل، أسود اللون، أبيض الخصال. سمع جماعة من أئمة الصحابة.

مكانته في التفسير:

كان رحمه الله من كبار التابعين ومتقدميهم في التفسير والحديث والفقه، أخذ القراءة عن ابن عباس عرضاً، وسمع منه التفسير، وأكثر روايته عنه وقد جمع سعيد القراءات الثابتة عن الصحابة وكان يقرأ بها، يدلنا على ذلك ما جاء عن إسماعيل بن عبد الملك أنه قال: "كان سعيد بن جبير يوماً في شهر رمضان فيقرأ ليلة بقراءة عبد الله بن مسعود، وليلة بقراءة زيد بن ثابت، وليلة بقراءة غيره، وهكذا أبداً"، ولا شك أن جمعه لهذه القراءات كان يعطيه القدرة على التوسع في معرفة معاني القرآن وأسراره، ولكن يظهر لنا أنه كان يتورع من القول في التفسير برأيه، يدلنا على ذلك ما رواه ابن خلكان: من أن رجلاً سأل سعيداً أن يكتب له تفسير القرآن فغضب وقال: لأن يسقط شقّي أحب إليّ من ذلك. ولقد جمع سعيد علم أصحابه من التابعين، وألمّ بما عندهم من النواحي التي برزوا فيها، فقد قال خصيف: "كان من أعلم التابعين بالطلاق سعيد بن المسيب. وبالحدج عطاء، وبالحنبل والحرام طاووس، وبالتفسير أبو الحجاج مجاهد بن جبر، وأجمعهم لذلك كله سعيد بن جبير".

لهذا كله نجد أستاذه ابن عباس يثق بعلمه، ويحيل عليه من يستفتيه، وكان يقول لأهل الكوفة إذا أتوه ليسألوه عن شيء: أليس فيكم ابن أم الدهماء؟ - يعنى سعيد بن جبير - ويروى عمرو بن ميمون عن أبيه أنه قال: لقد مات سعيد بن جبير

وما على ظهر الأرض أحد إلا وهو محتاج إلى علمه. ويرى بعض العلماء أنه مُقَدَّم على مجاهد وطاووس في العلم، وكان قتادة يرى أنه أعلم التابعين بالتفسير.

هذا وقد وثَّق علماء الجرح والتعديل سعيد بن جبير، فقال أبو القاسم الطبري: هو ثقة، حُجَّة، إمام على المسلمين. وذكره ابن حبان في الثقات وقال: كان عبداً فاضلاً ورعاً. وهو مُجَمَّع عليه من أصحاب الكتب الستة.

وقد قُتِلَ في شعبان سنة ٩٥ هـ (خمس وتسعين من الهجرة)، وهو ابن تسع

أربعين سنة، قال أبو الشيخ: قتله الحجاج صبراً. وله مناظرة قبل قتله مع الحجاج، تدل على قوة يقينه، وثبات إيمانه، وثقته بالله، فرضى الله عنه وأرضاه.

٢- مجاهد بن جبر

* ترجمته:

هو مجاهد بن جبر، المكي، المقرئ، المفسر، أبو الحجاج المخزومي، مولى السائب بن أبي السائب. كان أحد الأعلام الأثبات. ولد سنة ٢١ هـ (إحدى وعشرين من الهجرة) في خلافة عمر بن الخطاب. وكانت وفاته بمكة وهو ساجد، سنة ١٠٤ هـ (أربع ومائة) على الأشهر، وعمره ثلاث وثمانون سنة.

* مكانته في التفسير:

كان مجاهد - رحمه الله - أقل أصحاب ابن عباس رواية عنه في التفسير، وكان أوثقهم، لهذا اعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري وغيرهما، ونجد البخاري رضى الله عنه في كتاب التفسير من الجامع الصحيح، ينقل لنا كثيراً من التفسير عن مجاهد، وهذه أكبر شهادة من البخاري على ثقته وعدالته، واعتراف منه بمبلغ فهمه لكتاب الله تعالى، وقد روى الفضل ابن ميمون أنه سمع مجاهداً يقول: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة. وروى عنه أيضاً أنه قال: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات، أقف عند كل آية، أسأله فيم نزلت، وكيف كانت؟ ولا تعارض بين هاتين الروايتين، لأن الإخبار بالقليل لا ينافي الإخبار بالكثير، ولعله عرض القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة لتمام الضبط، ودقة التجويد، وحسن الأداء، وعرضه بعد ذلك ثلاث مرات طلباً لتفسيره، ومعرفة ما دق من أسرار، وخفى من معانيه. كما تُشعر بذلك ألفاظ الرواية. وعن ابن أبي مليكة قال: رأيت مجاهداً سأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواحه، فقال ابن عباس: اكتب، حتى سأله عن التفسير كله. وروى عبد السلام بن حرب عن مصعب قال: كان أعلمهم بالتفسير مجاهد، وبالحدج عطاء. وقال قتادة: أعلم من بقى بالتفسير مجاهد. وقال ابن سعد: كان ثقة، فقيهاً، عالماً، كثير الحديث. وقال ابن حبان: كان فقيهاً، ورعاً، عابداً، متقناً. وأخرج ابن جرير في تفسيره عن أبي بكر الحنفي قال: سمعت سفيان الثوري يقول: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به. وكان رحمه الله جيد الحفظ، وقد حدَّث بهذا عن نفسه

قال: قال لي ابن عمر: وددت أن نافعاً يحفظ حفظك. وقال الذهبي في الميزان، في آخر ترجمة مجاهد: أجمعت الأمة على إمامة مجاهد والاحتجاج به. وقد أخرج له أصحاب الكتب الستة. كل هذه شهادات من العلماء النُّقَّاد تشهد بعلو مكانته في التفسير ولكن مع هذا كله، كان بعض العلماء لا يأخذ بتفسيره، فقد روى الذهبي في ميزانه: أن أبا بكر بن عياش قال: قلت للأعمش: ما بال تفسير مجاهد مخالف؟ أو ما بالهم يتَّقون تفسير مجاهد؟ - كما هي رواية ابن سعد - قال: كانوا يرون أنه يسأل أهل الكتاب هذا هو كل ما أخذ على تفسيره ولكن لم نر أحداً طعن عليه في صدقه وعدالته. وجملة القول فإن مجاهداً ثقة بلا مدافعة، وإن صح أنه كان يسأل أهل الكتاب فما أظن أنه تخطى حدود ما يجوز له من ذلك، لا سيما وهو تلميذ حَبْر الأمة ابن عباس. الذي شَدَّد النكير على من يأخذ عن أهل الكتاب ويصدِّقهم فيما يقولونه مما يدخل تحت حدود النهي الوارد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

مجاهد والتفسير العقلي: وكان مجاهد - رضى الله عنه - يعطى عقله حرية واسعة في فهم بعض نصوص القرآن التي يبدو ظاهرها بعيداً، فإذا ما مرَّ بنص قرآني من هذا القبيل، وجدناه ينزله بكل صراحة ووضوح على التشبيه والتمثيل،

وتلك الخطة كانت فيما بعد مبدئاً معترفاً به ومقرراً لدى المعتزلة في تفسير القرآن بالنسبة لمثل هذه النصوص.

وإذا نحن رجعنا إلى تفسير ابن جرير وقرأنا بعض ما جاء فيه عن مجاهد نجده يطبق هذا المبدأ عملياً في مواضع كثيرة.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية [٦٥] من سورة البقرة: {وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ} نجده يقول - كما يروى عنه ابن جرير - : "مُسِخَتْ قُلُوبُهُمْ وَلَمْ يُمَسِّخُوا قِرَدَةً، وَإِنَّمَا هُوَ مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ لَهُمْ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً". ولكن نجد ابن جرير لا يرتضى هذا التفسير من مجاهد فيقول معقباً عليه: وهذا القول الذي قاله مجاهد قول لظاهر ما دلَّ عليه كتاب الله مخالف.. ثم يمضى في تفنيد هذا القول بأدلة واضحة قوية.

وكذلك نجد ابن جرير ينقل عن مجاهد أنه فسّر قوله تعالى في الآيتين [٢٢، ٢٣] من سورة القيامة: {وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} .. بقوله: "تنتظر الثواب

من ربها، لا يراه من خلقه شيء" وهذا التفسير عن مجاهد كان فيما بعد متكناً قوياً للمعتزلة فيما ذهبوا إليه في مسألة رؤية الله تعالى.

ولعل مثل هذا المسلك من مجاهد، هو الذي جعل بعض المتورعين الذين كانوا يتخرجون من القول في القرآن برأيهم يتقون تفسيره، ويلومونه على قوله في القرآن بمثل هذه الحرية الواسعة في الرأي، فقد روى عن ابن مجاهد أنه قال: قال رجل لأبي: أنت الذي تفسّر القرآن برأيك؟ فبكى أبي ثم قال: إني إذن لجرئ، لقد حملت التفسير عن بضعة عشر رجلاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم.

ومهما يكن من شيء، فمجاهد رضى الله عنه إمام في التفسير غير مدافع، وليس في إعطائه لنفسه مثل هذه الحرية ما يغض من قيمته. أو يقلل من مكانته.

٤- طاووس بن كيسان اليماني

* ترجمته ومكانته في التفسير:

هو أبو عبد الرحمن طاووس بن كيسان، اليماني الحميري الجندي مولى بحير بن ريسان، وقيل مولى همدان. وروى عن العبادة الأربعة وغيرهم، ورُوي عنه أنه قال: جالست خمسين من الصحابة. وكان رحمه الله عالماً متقناً، خبيراً بمعانى كتاب الله تعالى، ويرجع ذلك إلى مجالسته لكثير من الصحابة يأخذ عنهم ويروى لهم، ولكن نجده يجلس إلى ابن عباس أكثر من جلوسه لغيره من الصحابة، ويأخذ عنه في التفسير أكثر مما يأخذ عن :

إني لأظن طاووساً من أهل الجنة، وقال فيه عمرو بن دينار: ما رأيت أحداً مثل طاووس. وقد أخرج له أصحاب الكتب الستة. وقال ابن معين: إنه ثقة. وقال ابن حبان: كان من عبّاد أهل اليمن ومن سادات التابعين، وكان مستجاب الدعوة، وحج أربعين حجة. وقال الذهبي: كان طاووس شيخ أهل اليمن، وكان كثير الحج فاتفق موته بمكة سنة ١٠٦ (ست ومائة من الهجرة) .

٥- عطاء بن أبي رباح

* ترجمته:

هو أبو محمد عطاء بن أبي رباح، المكي القرشي مولاهم، ولد سنة سبع وعشرين (٢٧هـ) ، وتوفى سنة أربع عشرة ومائة من الهجرة (١٤هـ) على أرجح الأقوال. كان - رحمه الله - أسود، أعور، أفتس، أشل، أعرج، ثم عمى بعد ذلك.

روى عن ابن عباس، وابن عمر، وابن عمرو بن العاص، وغيرهم. وحدَّث عن نفسه: أنه أدرك مائتين من الصحابة، وكان ثقة، فقيهاً، عالماً، كثير الحديث. وانتهت إليه فتوى أهل مكة، وكان ابن عباس يقول لأهل مكة إذا جلسوا إليه:

تجتمعون إلىَّ يا أهل مكة وعندكم عطاء؟. وقال فيه أبو حنيفة: ما رأيت فيمن لقيت أفضل من عطاء، ولا لقيت فيمن لقيت أكذب من جابر الجعفي. وقال الأوزاعي: مات عطاء يوم مات وهو أَرْضَى أهل الأرض عند الناس.

وقال سلمة بن كهيل: ما رأيت أحداً يريد بهذا العلم وجه الله إلا ثلاثة: عطاء، ومجاهد، وطاووس. وقال ابن حبان: كان من سادات التابعين فقهاً، وعلماً، وورعاً، وفضلاً. وهو عند أصحاب الكتب الستة.

مكانته في التفسير:

كل ما تقدم من أقوال العلماء في عطاء يشهد لمكانته العلمية على وجه العموم ويدل على مبلغ ثقته وصدقه، وليس أدل على ذلك من شهادة أستاذه ابن عباس له بذلك، ونجد شهرة عطاء على غيره من أصحاب ابن عباس، تتجلى في معرفته بمناسك الحج، ولهذا قال قتادة: كان أعلم التابعين أربعة: كان عطاء بن أبي رباح أعلمهم بالمناسك، وكان سعيد بن جبير أعلمهم بالتفسير. وكان عكرمة أعلمهم بالسير، وكان الحسن أعلمهم بالحلال والحرام. وإذا نحن تتبعنا الرواة عن ابن عباس نجد أن عطاء بن أبي رباح لم يُكثَر من الرواية عنه كما أكثر غيره، ونجد مجاهداً وسعيد بن جبير يسبقانه من ناحية العلم بتفسير كتاب الله، ولكن هذا لا يقلل من قيمته بين علماء التفسير، ولعل إقلاله في التفسير يرجع إلى تخرجه من القول بالرأى، فقد قال عبد العزيز بن رفيع: سئل عطاء عن مسألة فقال: لا أدري، فقل له: ألا تقول فيها برأيك؟ قال: إنى أستحي من الله يُدَانَ في الأرض برأى.

المحاضرة السابعة

تابع: التفسير في عهد التابعين

ثانياً : مدرسة التفسير بالمدينة ، ثالثاً : مدرسة التفسير بالعراق

مدرسة التفسير بالمدينة

*قيامها على أبي بن كعب:

كان بالمدينة كثير من الصحابة، أقاموا بها ولم يتحولوا عنها كما تحول كثير منهم إلى غيرها من بلاد المسلمين، فجلسوا لأتباعهم يعلمونهم كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فقامت بالمدينة مدرسة للتفسير، تتلمذ فيها كثير من التابعين لمشاهير المفسرين من الصحابة. ونستطيع أن نقول: إن قيام هذه المدرسة كان على أبي بن كعب، الذي يُعتبر بحق أشهر من تتلمذ له مفسرو التابعين بالمدينة، وذلك لشهرته أكثر من غيره في التفسير، وكثرة ما نُقل لنا عنه في ذلك.

* أشهر رجالها:

وقد وُجد بالمدينة في هذا الوقت كثير من التابعين المعروفين بالتفسير، اشتهر من بينهم ثلاثة، هم: زيد بن أسلم، وأبو العالية، ومحمد بن كعب القرظي. وهؤلاء منهم من أخذ عن أبي مباشرة، ومنهم من أخذ عنه بالواسطة.

وأرى أن أسوق نبذة عن تاريخ كل واحد من هؤلاء الثلاثة، بما يتناسب مع جانبه العلمي في التفسير فأقول:

١- أبو العالية

* ترجمته ومكانته في التفسير:

هو أبو العالية رفيع بن مهران الرياحي مولاهم، أدرك الجاهلية، وأسلم بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بسنتين. روى عن عليّ، وابن مسعود، وابن عباس. وابن عمر، وأبي

ن كعب، وغيرهم، وهو من ثقات التابعين المشهورين بالتفسير. قال فيه ابن معين، وأبو زرعة، وأبو حاتم: ثقة. وقال اللالكائي: مجمع على ثقته. وقال فيه العجلي: تابعي ثقة. من كبار التابعين. وقد أجمع عليها أصحاب الكتب الستة. وكان يحفظ القرآن وبيّته، وروى قتادة عنه أنه قال: قرأت القرآن بعد وفاة نبيكم بعشر سنين. وروى معمر عن هشام عن حفصة عنه أنه قال: قرأت القرآن على عهد عمر ثلاث مرات. وقال فيه ابن أبي داود: ليس أحد بعد الصحابة أعلم بالقراءة من أبي العالية.

وتروى عن أبي بن كعب نسخة كبيرة في التفسير، يرويها أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي. وقلنا فيما تقدم: إن هذا الإسناد صحيح، وقلنا أيضاً: إن ابن جرير وابن أبي حاتم أخرجوا من هذه النسخة كثيراً، كما أخرج منها الحاكم في مستدركه، والإمام أحمد في مسنده. وكانت وفاته سنة ٩٠ هـ (تسعين من الهجرة) على أرجح الأقوال في ذلك.

٢- محمد بن كعب القرظي

ترجمته ومكانته في التفسير:

هو أبو حمزة - أو أبو عبد الله - محمد بن كعب بن سليم بن أسد القرظي المدني، من حلفاء الأوس. روى عن عليّ، وابن مسعود، وابن عباس، وغيرهم. وروى عن أبي بن كعب بالواسطة. وقد اشتهر بالثقة، والعدالة، والورع، وكثرة الحديث، وتأويل القرآن. قال ابن سعد: كان ثقة، عالماً، كثير الحديث، ورعاً. وقال العجلي: مدني وتابعي، ثقة، رجل صالح. عالم بالقرآن. وهو عند أصحاب الكتب الستة. وقال ابن عون: ما رأيت أحداً أعلم بتأويل القرآن من القرظي. وقال ابن حبان:

كان من أفاضل أهل المدينة علماً وفقهاً، وكان يقص في المسجد فسقط عليه وعلى أصحابه سقف فمات هو وجماعة معه تحت الهدم، سنة ١١٨ هـ (ثمانى عشرة ومائة من الهجرة) ، وقيل غير ذلك، وهو ابن ثمان وسبعين سنة

٣- زيد بن أسلم

* ترجمته ومكانته فى التفسير:

هو أبو أسامة - أو أبو عبد الله - زيد بن أسلم، العدوى المدنى الفقيه المفسر، مولى عمر بن الخطاب رضى الله عنه. كان من كبار التابعين الذين عُرفوا بالقول فى التفسير والثقة فيما يروونه، قال فيه الإمام أحمد، وأبو زرعة، وأبو حاتم، والنسائى: ثقة.

ويكفينا شهادة هؤلاء الأربعة الأعلام دليلاً قوياً على ثقته وعدالته، كما أنه عند أصحاب الكتب الستة.

ولقد كان زيد بن أسلم معروفاً بين معاصريه بغزارة العلم، فكان منهم من يجلس إليه، ويأخذ عنه، ويرى أنه ينفعه أكثر من غيره، يدلنا على هذا ما رواه البخارى فى تاريخه أن على بن الحسين كان يجلس إلى زيد بن أسلم ويتخطى مجلس قومه، فقال له نافع بن جبير بن مطعم: تتخطى مجالس قومك إلى عبد عمر بن الخطاب؟ فقال على: إنما يجلس الرجل إلى من ينفعه فى دينه.

وقد عُرف زيد بأنه كان يُفسر القرآن برأيه ولا يتحرج من ذلك، فقد روى حماد بن زيد، عن عبيد الله بن عمر أنه قال فيه: لا أعلم به بأساً، إلا أنه يُفسر برأيه القرآن ويكثر منه، وهذه شهادة من عبيد الله بن عمر أن زيدا ثقة لا يؤخذ عليه شئ إلا أنه كان يُكثر من القول بالرأى، وهذا لا يُعد مغزراً من عبيد الله فى ثقته وعدالته، كما لا نستطيع أن نُعد هذا طعنًا منه فى علمه، فلعل عبيد الله كان ممن يتورعون عن القول فى القرآن برأيهم كغيره من الصحابة والتابعين ، وكان زيد يرى جواز تفسير القرآن بالرأى فلا يتحرج منه كما لا يتحرج من ذلك كثير من الصحابة والتابعين، ولا نجد فى العلماء من نسب زيد بن أسلم إلى مذهب من المذاهب المبتدعة حتى نقول إنه كان يُفسر القرآن برأيه مطابقاً لمذهبه البدعى، ولو كان شئ من ذلك لما سكت عبيد الله عن بيانه، ولما حكم عليه حكمه هذا، الذى يدل على ثقته وعدالته، وإن دلَّ على اختلافهما فى جواز التفسير بالرأى أشهر من أخذ التفسير عن زيد بن أسلم من علماء المدينة: ابنه عبد الرحمن بن زيد، ومالك بن أنس إمام دار الهجرة.

وكانت وفاته سنة ١٣٦ هـ (ست وثلاثين ومائة من الهجرة) وقيل غير ذلك.

ثالثاً: مدرسة التفسير بالعراق

* قيامها على ابن مسعود:

قامت مدرسة التفسير بالعراق على عبد الله بن مسعود رضى الله عنه، وكان هناك غيره من الصحابة أخذ عنهم أهل العراق التفسير، غير أن عبد الله بن مسعود كان يعتبر الأستاذ الأول لهذه المدرسة، نظراً لشهرته فى التفسير وكثرة المروى عنه فى ذلك، ولأن عمر رضى الله عنه لما ولى عمار بن ياسر على الكوفة، سبّر معه عبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً، فكونه معلماً أهل الكوفة بأمر أمير المؤمنين عمر، جعل الكوفيين يجلسون إليه، ويأخذون عنه أكثر مما يأخذون عن غيره من الصحابة ويمتاز أهل العراق بأنهم أهل الرأى. وهذه ظاهرة نجدتها بكثرة فى مسائل الخلاف، ويقول العلماء: إن ابن مسعود هو الذى وضع الأساس لهذه الطريقة فى الاستدلال، ثم توارثها عنه علماء العراق ، ومن الطبيعى أن تؤثر هذه الطريقة فى مدرسة التفسير، فيكثر تفسير بالرأى والاجتهاد، لأن استنباط مسائل الخلاف الشرعية، نتيجة من نتائج أعمال الرأى فى فهم نصوص القرآن والسنة.

* أشهر رجالها:

وقد عُرفَ بالتفسير من أهل العراق كثير من التابعين، اشتهر من بينهم علقمة بن قيس، ومسروق، والأسود بن يزيد، ومُرّة الهمداني، وعامر الشعبي،

***والحسن البصري، وقتادة بن دعامة السدوسي، ونتكلم عن كل واحد من هؤلاء على الترتيب:**

١- علقمة بن قيس

*** ترجمته ومكانته في التفسير:**

هو علقمة بن قيس، بن عبد الله، بن مالك، النخعي الكوفي، ولد في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم. روى عن عمر، وعثمان، وعليّ، وابن مسعود، وغيرهم. وهو من أشهر رواة عبد الله بن مسعود، وأعرفهم به، وأعلمهم بعلمه. قال عثمان بن سعيد: قلت لابن معين: علقمة أحب إليك أم عبيدة؟ فلم يخبر، قال عثمان: كلاهما ثقة، وعلقمة أعلم بعبد الله. وقال أبو المثني: إذا رأيت علقمة فلا يضرك أن لا ترى عبد الله، أشبه الناس به سَمناً وهُدْيًا. وقال داود بن أبي هند: قلت لشعبة: أخبرني عن أصحاب عبد الله، قال: كان علقمة أنظر القوم به. * * *

وروى عبد الرحمن بن يزيد قال: قال عبد الله: ما أقرأ شيئاً ولا أعلمه إلا علقمة يقرؤه ويعلمه. وقال إبراهيم النخعي: كان أصحاب عبد الله الذين يقرئون الناس ويعلمونهم السُنَّةَ ويصدر الناس عن رأيهم ستة: علقمة، والأسود... وذكر الباقرين. وكان رحمه الله ثقة مأموناً، على جانب عظيم من الورع والصلاح. قال فيه الإمام أحمد: ثقة من أهل الخير. وهو عند أصحاب الكتب الستة. وقال مرة الهمداني: كان علقمة من الربانيين، قال أبو نعيم: مات سنة ٦١ هـ (إحدى وستين، أو اثنتين وستين من الهجرة)، وعمره تسعون سنة.

٤- مسروق

*** ترجمته ومكانته في التفسير:**

هو أبو عائشة، مسروق بن الأجدع بن مالك بن أمية الهمداني الكوفي العابد. سأله عمر يوماً عن اسمه فقال له: اسمي مسروق بن الأجدع، فقال عمر: الأجدع شيطان، أنت مسروق بن عبد الرحمن، روى عن الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وأبي بن كعب، وغيرهم، وكان أعلم أصحاب ابن مسعود، يمتاز بورعه وعلمه وعدالته، وكان شريح القاضي يستشيره في معضلات المسائل. وقال مالك بن مغول: سمعت أبا السفر غير مرة قال: ما ولدت همدانية مثل مسروق. وقال الشعبي: ما رأيت أطلب للعلم منه. وقال عليّ بن المديني: ما أقدم على مسروق من أصحاب عبد الله أحداً. وهذه الشهادة من ابن المديني، يبدو أنها قائمة على ما امتاز به مسروق من غزارة العلم الذي استفاده من جلوسه لكثير من الصحابة ولابن مسعود على الأخص، الأمر الذي جعله يجمع بين علم هؤلاء جميعاً، ولقد حدّث مسروق - رضى الله عنه - أنه جالس أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فوجدهم كالإخاذ، فالإخاذ يروى الرجل، والإخاذ يروى الرجلين، والإخاذ يروى العشرة، والإخاذ يروى المائة، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم.

ثم إن هذا التلمذ لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولابن مسعود الذي اشتهر بتفسير القرآن، جعل من مسروق إماماً في التفسير، وعالمًا خبيراً بمعاني كتاب الله تعالى. وقد حدّث مسروق بما يدل على أنه استفاد الكثير من التفسير عن أستاذه ابن مسعود فقال: كان عبد الله - يعني ابن مسعود - يقرأ علينا السورة ثم يُحدّثنا فيها ويُفسرُها عامة النهار.

أما ثقته وعدالته، فأمر اعترف به علماء الجرح والتعديل، فقال ابن معين: ثقة، لا يُسئل عن مثله. وقال ابن سعد: كان ثقة، وله أحاديث صالحة. وذكره ابن حبان في الثقات، وقد أخرج له الستة. هذا وقد روى شعبة عن أبي إسحاق أنه قال: حج مسروق فلم ينم إلا ساجداً. وكانت وفاته سنة ٦٣ هـ (ثلاث وستين من الهجرة) على الأشهر.

الأسود بن يزيد

*** ترجمته ومكانته في التفسير:**

هو أبو عبد الرحمن، الأسود بن يزيد بن قيس، النخعي، كان من كبار العلماء
أبي بكر، وعمر، وعليّ، وحذيفة، وبلال، وغيرهم. وكان رحمه الله ثقة، صالحاً، على جانب عظيم من الفهم لكتاب الله
تعالى. قال فيه الإمام أحمد: ثقة من أهل الخير. وقال فيه يحيى بن معين: ثقة. وقال ابن سعد: ثقة وله أحاديث صالحة.
وهو عند أصحاب الكتب الستة، وقال الحكم: كان الأسود يصوم الدهر، وذهبت إحدى عينيه من الصوم. وذكره إبراهيم
النخعي فيمن ان يُفتى من أصحاب ابن مسعود. وقال ابن حبان في الثقات: كان فقيهاً زاهداً. توفي بالكوفي سنة ٧٤ هـ
(أربع وسبعين، أو خمس وسبعين من الهجرة) على الخلاف في ذلك.

٥- مُرَّة الهمداني

* ترجمته ومكانته في التفسير:

هو أبو إسماعيل، مُرَّة بن شراحيل الهمداني، الكوفي، العابد المعروف بمُرَّة الطيب، ومُرَّة الخير. لُقِّبَ بذلك لعبادته،
وشدة ورعه، وكثرة صلاحه. روى عن أبي بكر، وعمر، وعليّ، وابن مسعود، وغيرهم. وروى عنه الشعبي، وغيره من
أصحابه. وثَقَّه ابن معين، والعجلي. وهو عند أصحاب الكتب الستة. قال فيه الحارث الغنوي: سجد مرة الهمداني حتى
أكل التراب وجهه، وكان يصلى كل يوم ستمائة ركعة، وتوفي سنة ٧٦ هـ (ست وسبعين من الهجرة).

قيمة التفسير المأثور عن التابعين

اختلف العلماء في الرجوع إلى تفسير التابعين والأخذ بأقوالهم إذا لم يُؤثّر في ذلك شيء عن الرسول صلى الله عليه
وسلم، أو عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

فَقِيلَ عن الإمام أحمد رضى الله عنه روايتان في ذلك: رواية بالقبول، ورواية بعدم القبول، وذهب بعض العلماء: إلى أنه
لا يُؤخذ بتفسير التابعي، واختاره ابن عقيل، وحكى عن شعبة. واستدل أصحاب هذا الرأي على ما ذهبوا إليه: بأن
التابعين ليس لهم سماع من الرسول صلى الله عليه وسلم، فلا يمكن الحمل عليه كما قيل في تفسير الصحابي: إنه محمول
على سماعه من النبي صلى الله عليه وسلم. وبأنهم لم يشاهدوا القرائن والأحوال التي نزل عليها القرآن، فيجوز عليهم
الخطأ في فهم المراد وظن ما ليس بدليل دليلاً، ومع ذلك فعدالة التابعين غير منصوص عليها كما نُصَّ على عدالة
الصحابة. نُقِلَ عن أبي حنيفة أنه قال: "ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلى الرأس والعين، وما جاء عن
الصحابة تخيرنا، وما جاء عن التابعين فهم رجال ونحن رجال

وقد ذهب أكثر المفسرين: إلى أنه يُؤخذ بقول التابعي في التفسير، لأن التابعين تلقوا غالب تفسيراتهم عن الصحابة،
فمجاهد مثلاً يقول: عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته، وأوقفه عند كل آية منه
وأسأله عنها. وقتادة يقول: ما في القرآن آية إلا وقد سمعتُ فيها شيئاً. ولذا حكى أكثر المفسرين أقوال التابعين في كتبهم
ونقلوها عنهم مع اعتمادهم لها.

والذى تميل إليه النفس: هو أن قول التابعي في التفسير لا يجب الأخذ به إلا إذا كان مما لا مجال للرأى فيه، فإنه يُؤخذ به
حينئذ عند عدم الريبة، فإن ارتبنا فيه، بأن كان يأخذ من أهل الكتاب، فلنا أن نترك قوله ولا نعتمد عليه، أما إذا أجمع
التابعون على رأى فإنه يجب علينا أن نأخذ به ولا نتعداه إلى غيره.

*قال ابن تيمية: قال شعبة بن الحجاج وغيره: أقوال التابعين ليست حُجَّة، فكيف تكون حُجَّة في التفسير؟ بمعنى أنها لا
تكون حُجَّة على غيرهم ممن خالفهم، وهذا صحيح، أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يُرتاب في كونه حُجَّة فإن اختلفوا فلا
يكون قول بعضهم حُجَّة على بعض ولا على من بعدهم، ويُرجع في ذلك إلى لغة القرآن، أو السُّنَّة، أو عموم لغة العرب،
أو أقوال الصحابة في ذلك.

مميزات التفسير في هذه المرحلة

يمتاز التفسير في هذه المرحلة بالمميزات الآتية:

أولاً: دخل في التفسير كثير من الإسرائيليات والنصرانيات، وذلك كثرة من دخل من أهل الكتاب في الإسلام، وكان لا يزال عالقاً بأذهانهم من الأخبار ما لا يتصل بالأحكام الشرعية، كأخبار بدء الخليقة، وأسرار الوجود، وبدء الكائنات. وكثير من القصص. وكانت النفوس ميّالة لسماع التفاصيل عما يشير إليه القرآن من أحداث يهودية أو نصرانية، فتساهل التابعون فزجوا في التفسير بكثير من الإسرائيليات والنصرانيات بدون تحرُّ ونقد. وأكثر من روى عنه في ذلك من مسلمي أهل الكتاب: عبد الله بن سلام، وكعب الأحبار، ووهب بن منبه، وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج. ولا شك أن الرجوع إلى هذه الإسرائيليات في التفسير أمر مأخوذ على التابعين كما هو مأخوذ على من جاء بعدهم. وسنأتى بعرض لهذه الناحية عرضاً موسعاً عند الكلام عن أسباب الضعف في رواية التفسير المأثور إن شاء الله تعالى.

ثانياً: ظل التفسير محتفظاً بطابع التلقى والرواية، إلا أنه لم يكن تلقياً ورواية بالمعنى الشامل كما هو الشأن في عصر النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، بل كان تلقياً ورواية يغلب عليهما طابع الاختصاص، فأهل كل مصر يعنون - بوجه خاص - بالتلقى والرواية عن إمام مصرهم، فالمكيون عن ابن عباس، والمدنيون عن أبيّ، والعراقيون عن ابن مسعود... وهكذا.

ثالثاً: ظهرت في هذا العصر نواة الخلاف المذهبي، فظهرت بعض تفسيرات تحمل في طياتها هذه المذاهب، فنجد مثلاً قتادة بن دعامة السدوسي يُنسب إلى الخوض في القضاء والقدر ويُتهم بأنه قدرى، ولا شك أن هذا أثرٌ على تفسيره، ولهذا كان يتحرج بعض الناس من الرواية عنه. ونجد الحسن البصرى قد فسّر القرآن على إثبات القدر، ويُكفّر من يُكذّب به كما ذكرنا ذلك في ترجمته.

رابعاً: كثرة الخلاف بين التابعين في التفسير عما كان بين الصحابة رضوان الله عليهم، وإن كان اختلافاً قليلاً بالنسبة لما وقع بعد ذلك من متأخري المفسرين .

المحاضرة الثامنة

الخلاف بين السلف في التفسير

قلنا إن الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - كانوا يفسّرون القرآن بمقتضى لغتهم العربية، وما يعلمونه من الأسباب التي نزل عليها القرآن، وبما أحاط بنزوله من ظروف وملابسات، وكانوا يرجعون في فهم ما أشكل عليهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقلنا إن المفسّرين من التابعين كانوا يجلسون لبعض الصحابة يتلقون عنهم ويروون لهم، فأخذوا عنهم كثيراً من التفسير، وقالوا فيه أيضاً برأيهم واجتهادهم وكانت لغتهم العربية لم تصل إلى درجة الضعف التي وصلت إليها فيما بعد.

إذا نحن تتبعنا ما نقل لنا من أقوال السلف في التفسير، وجمعنا ما هو مبثوث في كتب التفسير بالمأثور لخرجنا بادي الرأي بكثير من الأقوال المختلفة في المسألة الواحدة، فقول لصحابي يخالف قول صحابي آخر، وقول لتابعي يخالف قول تابعي آخر، بل كثيراً ما نجد قولين مختلفين في المسألة الواحدة، وكلاهما منسوب لقائل

واحد، فهل معنى هذا أن الخلاف في التفسير قد اتسعت دائرته على عهد الصحابة والتابعين، وهل معنى هذا أن الصحابي أو التابعي يناقض نفسه في المسألة الواحدة؟.. لا، فدائرة الخلاف لم تتسع، ولم يناقض الصحابي أو التابعي نفسه. وذلك لأن غالب ما صح عنهم من الخلاف في التفسير يرجع إلى اختلاف عبارة مثلاً، أو اختلاف تنوع، لا إلى اختلاف تباين وتضاد كما ظنه بعض الناس فحكاه على أنه أقوال متباينة لا يرجع بعضها إلى بعض.

ونستطيع بعد البحث والنظر في هذه الأقوال التي اختلفت ولم تتباين، أن نرجع هذا الخلاف إلى عدة أمور، نذكرها ليتبين لنا أنه لا تنافي ولا تباين بين هذه الأقوال التي تبدو متعارضة عن السلف، وهي ما يأتي:

أولاً: أن يُعبّر كل واحد من المفسّرين عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه تدل على معنى في المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمى، وذلك مثل أسماء الله الحسنى، وأسماء رسوله صلى الله عليه وسلم، وأسماء القرآن، فإن أسماء الله كلها على مسمى واحد، فلا يكون دعاؤه باسم من أسمائه الحسنى مضاداً لدعائه باسم آخر

واحد، فهل معنى هذا أن الخلاف في التفسير قد اتسعت دائرته على عهد الصحابة والتابعين، وهل معنى هذا أن الصحابي أو التابعي يناقض نفسه في المسألة الواحدة؟.. لا، فدائرة الخلاف لم تتسع، ولم يناقض الصحابي أو التابعي نفسه. وذلك لأن غالب ما صح عنهم من الخلاف في التفسير يرجع إلى اختلاف عبارة مثلاً، أو اختلاف تنوع، لا إلى اختلاف تباين وتضاد كما ظنه بعض الناس فحكاه على أنه أقوال متباينة لا يرجع بعضها إلى بعض.

ونستطيع بعد البحث والنظر في هذه الأقوال التي اختلفت ولم تتباين، أن نرجع هذا الخلاف إلى عدة أمور، نذكرها ليتبين لنا أنه لا تنافي ولا تباين بين هذه الأقوال التي تبدو متعارضة عن السلف، وهي ما يأتي:

أولاً: أن يُعبّر كل واحد من المفسّرين عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه تدل على معنى في المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمى، وذلك مثل أسماء الله الحسنى، وأسماء رسوله صلى الله عليه وسلم، وأسماء القرآن، فإن أسماء الله كلها على مسمى واحد، فلا يكون دعاؤه باسم من أسمائه الحسنى مضاداً لدعائه باسم آخر

وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي {طه: ١٢٤} .. وإذا قيل: ما ذكره؟ يقال: ذكره قرآنه، أو كتابه، أو كلامه، أو هُداه، ونحو ذلك. وهذا على القول المشهور من أن المصدر مضاف للفاعل، كما يدل عليه سياق الآية وسباقها.

وإن كان مقصود السائل معرفة ما في الاسم من الصفة المختصة به فلا بد في ذلك من قدر زائد على تعيين المسمى، مثل أن يسأل عن القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، وقد علم أنه الله ولكن يريد أن يعرف معنى كونه قدوساً وسلاماً، ومؤمناً، ومهيماً، ونحو ذلك.

والسلف كثيراً ما يُعبّرون عن المسمى بعبارة تدل على عينه وإن كان فيها من الصفة ما ليس في الاسم الآخر، كمن يقول: القدوس: هو الله، أو الرحمن، أو الغفور، ومراده أن المسمى واحد، لا أن هذه الصفة هي هذه. ومعلوم أن هذا اختلاف لا يمكن أن يقال إنه اختلاف تباين وتضاد كما ظنه بعض الناس.

ومثال ذلك تفسيرهم للصراط المستقيم، فقال بعضهم: هو اتباع القرآن، لقوله صلى الله عليه وسلم في

حديث عليّ عند الترمذى: "ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جنبتي الصراط سوران، وفي السورين أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وداع يدعو من فوق الصراط، وداع يدعو على رأس الصراط، قال: فالصراط المستقيم هو الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، والداعي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مؤمن".

ومنه من قال: هو اتباع السنّة والجماعة، ومنه من قال: هو طريق

العبودية، ومنه من قال: هو طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وقيل غير ذلك فهذه كلها أقوال لا منافاة بينها ولا تباين، بل كلها متفقة في الحقيقة، لأن دين الإسلام هو اتباع القرآن، وهو طاعة الله ورسوله، وهو طريق العبودية لله، فالذات واحدة، وكلُّ أشار إليها ووصفها بصفة من صفاتها.

ثانياً: أن يذكر كل منهم من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل وتنبيه المستمع على النوع، لا على سبيل الحد المطابق للمحدود في عمومته وخصوصه.

مثال ذلك ما نقل في قوله تعالى: {رُتِّمَ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْ بُدِئَ اللَّهُ} [فاطر: ٣٢] فبعضهم فسّر السابق بمن يصلى في أول الوقت، والمقتصد بمن يصلى في أثنائه، والظالم بمن يصلى بعد فواته. وبعضهم فسّر السابق بمن يؤدي الزكاة المفروضة مع الصدقة، والمقتصد بمن يؤديها وحدها، والظالم بمانع الزكاة، فكل من المفسرين ذكر فرداً من أفراد العام على سبيل التمثيل لا الحصر، لتعريف المستمع أن الآية تتناول المذكور، ولتنبيهه به على نظيره، فإن التعريف بالمثال قد يكون أسهل من التعريف بالحد المطابق. والعقل السليم يتفطن للنوع بذكر مثاله. وهذا الاختلاف في ذكر المثال لا يؤدي إلى التباين والتناقض بين الأقوال، إذ من المعلوم أن الظالم لنفسه يتناول المضيع للواجبات والمنتكح للحُرّمات، والمقتصد يتناول فاعل الواجبات وتارك المحرّمات. والسابق يتناول من تقرب بالحسنات مع الواجبات.

ومن هذا القبيل أن يقول أحدهم: نزلت هذه الآية في كذا، ويقول الآخر: نزلت في كذا، كل يذكر غير ما يذكره صاحبه، لأن كلاً منهم يذكر بعض ما يتناوله اللفظ، وهذا لا تنافي فيه ما دام اللفظ يتناول قول كل منهما.

أما إذا قال أحدهم: سبب نزول هذه الآية كذا، وقال الآخر: سبب نزول هذه الآية كذا، وكل ذكر غير ما ذكره الآخر، فيمكن أن يقال: إن الآية نزلت عقب تلك الأسباب، أو تكون نزلت مرتين: مرة لهذا السبب، ومرة لهذا السبب.

ثالثاً: أن يكون اللفظ محتملاً للأمرين أو الأمور، وذلك إما لكونه مشتركاً في اللغة، كلفظ "قَسْوَرَة"، الذي يراد به الرامي ويراد به الأسد، ولفظ "عَسَّسَ"، الذي يراد به إقبال الليل ويراد به إداره. وإما لكونه متواطئاً في الأصل لكن المراد به أحد النوعين، أو أحد الشخصين، كالضمانر في قوله تعالى: {ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى} [النجم: ٨-٩] .. وكلفظ: {والفجر * وليالٍ عَشْرٍ * والشفع والوتر} [الفجر: ١-٣] .. وما مائل ذلك، فمثل هذا قد يجوز أن يراد به كل المعاني التي قالها السلف، وذلك إما لكون الآية

نزلت مرتين، فأريد بها هذا تارة وهذا تارة. وإما لكون اللفظ المشترك يجوز أن يراد به معناه أو معانيه، وهذا يقول به أكثر الفقهاء من

المالكية، والشافعية، والحنابلة، وكثير من أهل الكلام. وإما لكون اللفظ متواطئاً، فيكون عاماً إذا لم يكن هناك موجب لتخصيصه.

رابعاً: أن يُعبروا عن المعانى بألفاظ متقاربة لا مترادفة، فإن الترادف قليل فى اللغة، ونادر أو معدوم فى القرآن، وَقَلَّ أن يُعبر عن لفظ واحد بلفظ واحد يودى جميع معناه، وإنما يُعبر عنه بلفظ فيه تقريب لمعناه، فمثلاً إذا قال قائل: {يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا} [الطور: ٩] .. المور: الحركة فذلك تقريب للمعنى، لأن المور حركة خفيفة سريعة. كذلك إذا قال: {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ} [الإسراء: ٤] .. أي أعلمنا، لأن القضاء إليهم فى الآية أخص من الإعلام، فإن فيه إنزالاً وإبحاء إليهم.

فإذا قال أحدهم فى قوله تعالى: {وَدَكَّرْ بِهِ أَنْ تُنْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ} [الأنعام: ٧٠] إن معنى تبسل: تحبس، وقال الآخر: ترتهن، ونحو ذلك، لم يكن من اختلاف التضاد، لأن هذا تقريب للمعنى كما قلنا.

خامساً: أن يكون فى الآية الواحدة قراءتان أو قراءات، فيفسر كل منهم على حسب قراءة مخصوصة فيظن ذلك اختلافاً، وليس باختلاف، مثال ذلك: ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس وغيره من طرق فى قوله تعالى: {.. لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا} [الحجر: ١٥] . إن معنى سُكَّرَتْ: سُدَّتْ، ومن طريق أخرى عنه: أن سُكَّرَتْ بمعنى أُخِذَتْ وسُحِرَتْ، ثم أخرج عن قتادة أنه قال: مَنْ قرأ "سُكَّرَتْ" مشددة، فإنما يعنى سُدَّتْ، وَمَنْ قرأ "سُكَّرَتْ" مخففة، فإنه يعنى سُحِرَتْ. ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: {سَرَابِيلُهُمْ مِّنْ قَطْرَانٍ} [إبراهيم: ٥٠] أخرج ابن جرير عن الحسن: أنه الذى تهناً به الإبل، وأخرج من طرق عنه وعن

المذاب، وليس بقولين، وإنما الثانى تفسير لقراءة مَنْ قرأ: "من قطر أن" بتنوين قطر، وهو النحاس المذاب، وأن: شديد الحرارة. وأمثلة هذا النوع كثيرة. وقد خُرج على هذا الاختلاف الوارد عن ابن عباس وغيره فى تفسير قوله تعالى: {أَوْ لَأَمْسُكُمْ} [النساء: ٤٣، المائدة: ٦] .. هل هو الجماع، أو الجس باليد؟ فالأول تفسير لقراءة: "لامستم"، والثانى لقراءة: "لمستم" ولا اختلاف.

هذه هى الأوجه بواسطتها نستطيع أن نجمع بين أقوال السلف التى تبدو متعارضة. أما ما جاء عنهم من اختلاف فى التفسير ويتعذر الجمع بينه بواحد من الأمور السابقة - وهذا أمر نادر، أو اختلاف مخفف كما يقول ابن تيمية - فطريقنا فيه: أن ننظر فيمن نُقِلَ عنه الاختلاف، فإن كان عن شخص واحد واختلفت الروايتان صحة وضعفاً، فُدِّمَ الصحيح وتُرِكَ ما عداه، وإن استويينا فى الصحة وعرفنا

أن أحد القولين متأخر عن الآخر، فُدِّمَ المتأخر وتُرِكَ ما عداه. وإن لم نعرف تقدم أحدهما على الآخر رددنا الأمر إلى ما ثبت فيه السمع. فإن لم نجد سمعاً وكان للاستدلال طريق إلى تقوية أحدهما، رجَّحنا ما قوَّاه

الاستدلال وتركنا ما عداه. وإن تعارضت الأدلة فعلياً أن نؤمن بمراد الله تعالى ولا نتهجم على تعيين أحد القولين، ويكون الأمر حينئذ فى منزلة المجمل قبل تفصيله، والمتشابه قبل تبيينه.

وإن كان الاختلاف عن شخصين أو أشخاص، واختلفت الروايتان أو الروايات صحة وضعفاً، فُدِّمَ الصحيح وتُرِكَ ما عداه. وإن استوت الروايتان أو الروايات فى الصحة، رددنا الأمر إلى ما ثبت فيه السمع. فإن لم نجد سمعاً وكان للاستدلال طريق إلى تقوية أحدهما رجَّحنا ما قوَّاه الاستدلال وتركنا ما عداه. وإن تعارضت الأدلة فعلياً أن نؤمن بمراد الله تعالى، ولا نتهجم على تعيين أحد القولين أو الأقوال. ويكون الأمر حينئذ فى منزلة المجمل قبل تفصيله، والمتشابه قبل تبيينه.

ويرى الزركشى: أن الاختلاف إن كان بين الصحابة وتعذر الجمع، فُدِّمَ قول ابن عباس على قول غيره، وعُلِّلَ ذلك فقال: "لأن النبى صلى الله عليه وسلم بَشَّرَهُ حيث قال: "اللَّهُمَّ عَلِّمَهُ التَّأْوِيلَ".

* * *

المرحلة الثالثة (التفسير في عصر التدوين)

تمهيد

* ابتداء هذه المرحلة:

تبدأ المرحلة الثالثة للتفسير من مبدأ ظهور التدوين، وذلك في أواخر عهد بني أمية، وأول عهد للعباسيين.

* الخطوة الأولى للتفسير:

وكان التفسير قبل ذلك يُتناقل بطريق الرواية، فالصحابية يروون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما يروى بعضهم عن بعض. والتابعون يروون عن الصحابة. كما يروى بعضهم عن بعض، وهذه هي الخطوة الأولى للتفسير.

* الخطوة الثانية:

ثم بعد عصر الصحابة والتابعين، خطا التفسير خطوة ثانية، وذلك حيث ابتدأ التدوين لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكانت أبوابه متنوعة، وكان التفسير باباً من هذه الأبواب التي اشتمل عليها الحديث، فلم يُفرد له تأليف خاص يُفسر القرآن سورة سورة، وآية آية، من مبدئه إلى منتهاه، بل وُجد من العلماء مَنْ طَوَّفَ في الأمصار المختلفة ليجمع الحديث، فجمع بجوار ذلك ما رُوِيَ في الأمصار من تفسير منسوب إلى النبي صلى الله عليه وسلم، أو إلى الصحابة، أو إلى التابعين، ومن هؤلاء: يزيد بن هارون السلمي المتوفى سنة ١١٧هـ، وشعبة بن الحجاج المتوفى سنة ١٦٠هـ، ووكيع بن الجراح المتوفى سنة ١٩٧هـ وسفيان بن عيينة المتوفى سنة ١٩٨هـ، وروح عن عبادة البصري المتوفى سنة ٢٠٥هـ، وعبد الرزاق بن همام المتوفى سنة ٢١١هـ،

وآدم بن أبي إياس المتوفى سنة ٢٢٠هـ، وعبد بن حميد المتوفى سنة ٢٤٩هـ وغيرهم، وهؤلاء جميعاً كانوا من أئمة الحديث، فكان جمعهم للتفسير جمعاً لباب من أبواب الحديث، ولم يكن جمعاً للتفسير على استقلال وانفراد. وجميع ما نقله هؤلاء الأعلام عن أسلافهم من أئمة التفسير نقلوه مسنداً إليهم، غير أن هذه التفاسير لم يصل إلينا شئ منها، ولذا لا نستطيع أن نحكم عليها.

* الخطوة الثالثة:

ثم بعد هذه الخطوة الثانية، خطا التفسير خطوة ثالثة، انفصل بها عن الحديث، أصبح علماً قائماً بنفسه، ووضع التفسير لكل آية من القرآن، ورُتّب ذلك على حسب ترتب المصحف. وتم ذلك على أيدي طائفة من العلماء منهم ابن ماجه المتوفى سنة ٢٧٣هـ، وابن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ، وأبو بكر بن المنذر النيسابوري المتوفى سنة ٣١٨هـ، وابن أبي حاتم المتوفى سنة ٣٢٧هـ، وأبو الشيخ بن حبان المتوفى سنة ٣٦٩هـ، والحاكم المتوفى سنة ٤٠٥هـ، وأبو بكر بن مردويه المتوفى سنة ٤١٠هـ، وغيرهم من أئمة هذا الشأن.

وكل هذه التفاسير مروية بالإسناد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإلى الصحابة، والتابعين، وتابع التابعين، وليس فيها شئ من التفسير أكثر من التفسير المأثور، اللهم إلا ابن جرير الطبري فإنه ذكر الأقوال ثم وجهها، ورجح بعضها على بعض، وزاد على ذلك الإعراب إن دعت إليه حاجة، واستبطن الأحكام التي يمكن أن تؤخذ من الآيات القرآنية ... وسنأتى بالكلام عن هذا التفسير عند الكلام عن الكتب المؤلفة في التفسير بالمأثور إن شاء الله تعالى.

وإذا كان التفسير قد خطا هذه الخطوة الثالثة التي انفصل بها عن الحديث، فليس معنى أن هذه الخطوة محت ما قبلها وألغت العمل به، بل معناه أن التفسير تدرج في خطواته، فبعد أن كانت الخطوة الأولى للتفسير هي النقل عن طريق التلقي والرواية، كانت الخطوة الثانية له، وهي تدوينه على أنه باب من أبواب الحديث، ثم جاءت بعد ذلك الخطوة الثالثة، وهي تدوينه على استقلال وانفراد، فكل هذه الخطوات، تم إسلام بعضها إلى بعض، بل وظل المحدثون بعد هذه الخطوة

الثالثة، يسرون على نمط الخطوة الثانية، من رواية المنقول من التفسير فى باب خاص من أبواب الحديث، مقتصرين فى ذلك على ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو عن الصحابة أو عن التابعين.

* *

* ليس من السهل معرفة أول من دَوَّن تفسير كل القرآن مرتباً:

هذا.. ولا نستطيع أن نُعيِّن بالضبط، المفسر الأول الذى فسرَّ القرآن آية آية، ودَوَّنه على التتابع وحسب ترتيب المصحف. ونجد فى الفهرست لابن النديم (ص ٩٩) أن أبا العباس ثعلب قال: "كان السبب فى إملاء كتاب الفراء فى المعانى أن عمر بن بكير كان من أصحابه، وكان منقطعاً إلى الحسن بن سهل فكتب إلى الفراء: إن الأمير الحسن بن سهل، ربما سألتنى عن الشئ بعد الشئ

الخطوة الخامسة:

ثم خطا التفسير بعد ذلك خطوة خامسة، هى أوسع الخطا وأفسحها، امتدت من العصر العباسى إلى يومنا هذا، فبعد أن كان تدوين التفسير مقصوراً على رواية ما نُقل عن سلف هذه الأمة، تجاوز بهذه الخطوة الواسعة إلى تدوين تفسير اختلط فيه الفهم العقلى بالتفسير النقلى، وكان ذلك على تدرج ملحوظ فى ذلك.

* تدرج التفسير العقلى:

بدأ ذلك أولاً على هيئة محاولات فهم شخص، وترجيح لبعض الأقوال على بعض، وكان هذا أمراً مقبولاً ما دام يرجع الجانب العقلى منه إلى حدود اللغة ودلالة الكلمات القرآنية. ثم ظلت محاولات هذا الفهم الشخصى تزداد وتتضخم، متأثرة بالمعارف المختلفة، والعلوم المتنوعة، والآراء المتشعبة، والعقائد المتباينة، حتى وُجد من كتب التفسير ما يجمع أشياء كثيرة، لا تكاد تتصل بالتفسير إلا عن بُعدٍ عظيم.

دُوِّنت علوم اللغة، ودُوِّن النحو الصرف، وتشعبت مذاهب الخلاف الفقهى، وأثيرت مسائل الكلام، وظهر التعصب المذهبى قائماً على قدمه وساقه فى العصر العباسى، وقامت الفرق الإسلامية بنشر مذاهبها والدعوة إليها، وتُرجمت كتب كثيرة من كتب الفلاسفة، فامتزجت كل هذه العلوم وما يتعلق بها من أبحاث بالتفسير حتى طغت عليه، وغلب الجانب العقلى على الجانب النقلى، وصار أظهر شئ فى هذه الكتب، هو الناحية العقلية، وإن كانت لا تخلو مع ذلك من منقول يتصل بأسباب النزول، أو بغير ذلك على المأثور.

وهكذا تدرج التفسير، واتجهت الكتب المؤلفة فيه اتجاهات متنوعة.

القرآن، كما ظهرت آثار التصوف واضحة فيه، وكما ظهرت آثار النحل والأهواء فيه ظهوراً جلياً.

نأ لنلاحظ فى وضوح وجلاء: أن كل من برع فى فن من فنون العلم، يكاد يقتصر تفسيره على الفن الذى برع فيه، فالنحوى تراه لا همَّ له إلا الإعراب وذكر ما يحتمل فى ذلك من أوجه، وتراه ينقل مسائل النحو وفروعه وخلافياته، وذلك كالزجاج، والواحدى فى "البسيط"، وأبى حيان فى "البحر المحيط" ..

وصاحب العلوم العقلية، تراه يعنى فى تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة، كما تراه يعنى بذكر شُبُههم والرد عليهم، وذلك كالفخر الرازى فى كتابه "مفاتيح الغيب".

وصاحب الفقه تراه قد عنى بتقريره الأدلة للفروع الفقهيّة، والرد على من يخالف مذهبه، وذلك كالجصاص، والقرطبى..

وصاحب التاريخ، ليس له شغل إلا القصص، وذكر أخبار من سلف، ما صح منها وما لا يصح، وذلك كالثعلبى والغازن..

وصاحب البدع، ليس له قصد إلا أن يُؤوّل كلام الله ويُنزله على مذهبه الفاسد، وذلك كالرمانى، والجبائى، والقاضى عبد الجبار، والزمخشرى من المعتزلة، والطبرسى، وملا محسن الكاشى من الإمامية الإثنا عشرية.

وأصحاب التصوف قصدوا إلى ناحية الترغيب والترهيب. واستخراج المعانى الإشارية من الآيات القرآنية بما يتفق مع مشاربهم، ويتناسب مع رياضاتهم ومواجيدهم، ومن هؤلاء ابن عربى، وأبو عبد الرحمن السلمى..

وهكذا فسّر كل صاحب فن أو مذهب بما يتناسب مع فنه أو يشهد لمذهبه، وقد استمرت هذه النزعة العلمية العقلية وراجت فى بعض العصور رواجاً عظيماً، كما راجت فى عصرنا الحاضر تفسيرات يريد أهلها من ورائها أن يُحمّلوا آيات القرآن كل العلوم، ما ظهر منها وما لم يظهر، كأن هذا فيما يبدو وجه من وجوه إعجاز القرآن وصلاحيته لأن يتمشى مع الزمن. وفى الحق أن هذا غلو منهم، وإسراف يُخرج القرآن عن مقصده الذى نزل من أجله، ويحيد به عن هدفه الذى يرمى إليه.

وسوف نتكلم على ذلك بتوسع عند الكلام عن التفسير العلمى إن شاء الله تعالى.

ثم إن هذا الطغيان العقلى العلمى، لم يطغ على التفسير بالمأثور الطغيان الذى يجعله فى عداد ما درس وذهب، بل وُجد من العلماء فى عصور مختلفة، من استطاع أن يقاوم تيار هذا الطغيان، ففسّر القرآن تفسيراً نقلياً بحتاً، على توسع منهم فى النقل، وعدم تفرقة بين ما صح وما لم يصح، كما فعل السيوطى فى كتابه "الدر المنثور".

التفسير الموضوعى:

وكذلك وُجد من العلماء من ضيق دائرة البحث فى التفسير، فتكلم عن ناحية واحدة من نواحيه المتشعبة المتعددة، فابن القيم - مثلاً - أفرد كتاباً من مؤلفاته للكلام عن أقسام القرآن سماه "التبيان فى أقسام القرآن". وأبو عبيدة أفرد كتاباً للكلام عن مجاز القرآن والراغب الأصفهاني أفرد كتاباً فى مفردات القرآن. وأبو جعفر النحاس أفرد كتاباً فى الناسخ والمنسوخ من القرآن. وأبو الحسن الواحدى أفرد كتاباً فى أسباب نزول القرآن. والجصاص أفرد كتاباً فى أحكام القرآن.. وغير هؤلاء كثير من العلماء الذين قصدوا إلى موضوع خاص فى القرآن يجمعون ما تفرّق منه، ويفردونه بالدرس والبحث.

المحاضرة التاسعة

التفسير بالمأثور

يشمل التفسير المأثور ما جاء فى القرآن نفسه من البيان والتفصيل لبعض آياته، وما نُقل عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وما نُقل عن الصحابة رضوان الله عليهم، وما نُقل عن التابعين، من كل ما هو بيان وتوضيح لمراد الله تعالى من نصوص كتابه الكريم.

وإنما أدرجنا فى التفسير المأثور ما رُوِيَ عن التابعين - وإن كان فيه خلاف: هل هو من قبيل المأثور أو من قبيل الرأى - لأننا وجدنا كتب التفسير المأثور، كتفسير ابن جرير وغيره، لم تقتصر على ما يَذكر ما رُوِيَ عن النبي صلى الله عليه وسلم وما رُوِيَ عن أصحابه، بل ضمت إلى ذلك ما نُقل عن التابعين فى التفسير.

* تدرج التفسير المأثور:

تدرج التفسير المأثور فى دوريه - دور الرواية ودور التدوين - أما فى دور الرواية، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم بيّن لأصحابه ما أشكل عليهم من معانى القرآن، فكان هذا القدر من التفسير يتناوله الصحابة بالرواية بعضهم لبعض، ولمن جاء بعدهم من التابعين.

ثم وُجد من الصحابة مَنْ تكلم فى تفسير القرآن بما ثبت لديه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو بمحض رأيه واجتهاده، وكان ذلك على قلة يرجع السبب فيها إلى الروعة الدينية التى كانت لهذا العهد، والمستوى العقلى الرفيع لأهله، وتحدد حاجات حياتهم العملية، ثم شعورهم مع هذا بأن التفسير شهادة على الله بأنه عَنِى باللفظ كذا.

ثم وُجد من التابعين مَنْ تصدّى للتفسير، فروى ما تجمّع لديه من ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة، وزاد على ذلك من القول بالرأى والاجتهاد، بمقدار ما زاد من الغموض الذى كان يتزايد كلما بُعد الناس عن عصر النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة.

ثم جاءت الطبقة التى تلى التابعين وروت عنهم ما قالوا، وزادوا عليه بمقدار ما زاد من غموض ... وهكذا ظل التفسير يتضخم طبقة بعد طبقة، وتروى الطبقة التالية ما كان عند الطبقات التى سبقتها، كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق.

ثم ابتدأ دور التدوين - وهو ما يعيننا فى هذا البحث - فكان أول ما دُوّن من التفسير، هو التفسير المأثور، على تدرج فى التدوين كذلك، فكان رجال الحديث والرواية هم أصحاب الشأن الأول وقد رأينا أصحاب مبادئ العلوم حين ينسبون

* على عادتهم - وضع كل علم لشخص بعينه، يعدون واضع التفسير - بمعنى جامعه لا مدوّنه - الإمام مالك بن أنس الأصبحى، إمام دار الهجرة.

وكان التفسير إلى هذا الوقت لم يتخذ له شكلاً منظماً، ولم يُفرد بالتدوين، بل كان يُكتب على أنه باب من أبواب الحديث المختلفة، يجمعون فيه ما رُوِيَ عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة والتابعين.

ثم بعد ذلك انفصل التفسير عن الحديث، وأُفرد بتأليف خاص، فكان أول ما عُرف لنا من ذلك، تلك الصحيفة التى رواها على بن أبى طلحة عن ابن عباس

ثم وُجد من ذلك جزء أو أجزاء دُوّنت فى التفسير خاصة، مثل ذلك الجزء المنسوب لأبى روق، وتلك الأجزاء الثلاثة التى يرويهها محمد بن ثور عن ابن جريج.

ثم وُجِدَت من ذلك موسوعات من الكتب المؤلفة فى التفسير، جمعت كل ما وقع لأصحابها من التفسير المروى عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وتابعيهم، كتفسير ابن جرير الطبرى. ويُلاحظ أن ابن جرير ومن على شاكلته - وإن نقلوا تفاسيرهم بالإسناد - توسّعوا فى النقل وأكثروا منه، حتى استفاض وشمل ما ليس موثقاً به. كما يُلاحظ أنه كان لا يزال

موجوداً إلى ما بعد عصر ابن جرير ومَنْ على شاكلته - ممن أفردوا التفسير بالتأليف - رجال من المحدثين بؤبوا للتفسير باباً ضمن أبواب ما جمعوا من الأحاديث.

ثم وُجد بعد هذا أقوام دَوَّنوا التفسير المأثور بدون أن يذكروا أسانيدهم في ذلك، وأكثروا من نقل الأقوال في تفاسيرهم بدون تفرقة بين الصحيح والعليل، مما جعل الناظر في هذه الكتب لا يركن لما جاء فيها، لجواز أن يكون من قبيل الموضوع المخلوق، وهو كثير في التفسير.

ثم بعد هذا تعيَّرت وجهات الحياة، فبعد أن كان التدوين في التفسير لا يتعدى المأثور منه، تعدَّى إلى تدوين التفسير بالرأى على تدرج فيه، كما أشرنا إليه فيما سبق

الضعف في رواية التفسير المأثور وأسبابه:

علمنا مما تقدّم أن التفسير المأثور يشمل ما كان تفسيراً للقرآن بالقرآن، وما كان تفسيراً للقرآن بالسنة، وما كان تفسيراً للقرآن بالموقوف على الصحابة أو المروى عن التابعين. أما تفسير القرآن بالقرآن. أو بما ثبت من السنة الصحيحة، فذلك مما لا خلاف في قبوله، لأنه لا يتطرق إليه الضعف. ولا يجد الشك إليه سبيلاً.

أما ما أُضيف إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو ضعيف في سنده أو متنه فذلك مردود غير مقبول، ما دام لم تصح نسبته إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

وأما تفسير القرآن بما يُروى عن الصحابة أو التابعين، فقد تسرَّب إليه الخلل، وتطرَّق إليه الضعف، إلى حد كاد يُفقدنا الثقة بكل ما رُوِيَ من ذلك، لولا أن قيَّض الله لهذا التراث العظيم مَنْ أزاح عنه هذه الشكوك، فسلمت لنا منه كمية لا يُستهان بها، وإن كان صحيحها وسقيمها لا يزال خليطاً في كثير من الكتب التي عني أصحابها بجمع شتات الأقوال.

ولقد كانت كثرة المروى من ذل كثرة جاوزت الحد - وبخاصة عن ابن عباس وعلى بن أبي طالب رضى الله عنهما - أكبر عامل في صرف همة العلماء ولفت أنظارهم إلى البحث والتمحيص، والنقد والتعديل والتجريح، حتى لقد نُقل عن الإمام الشافعي رضى الله عنه أنه قال: "لم يثبت عن ابن عباس في التفسير إلا شبيه بمائة حديث". وهذا العدد الذي ذكره الشافعي، لا يكاد يُذكر بجوار ما رُوِيَ عن ابن عباس من التفسير. وهذا يدل على مبلغ ما دخل من التفسير النقلى من الروايات المكذوبة المصنوعة.

أسباب الضعف:

ونستطيع أن نُرجع أسباب الضعف في رواية التفسير المأثور إلى أمور ثلاثة:

أولها: كثرة الوضع في التفسير.

ثانيها: دخول الإسرائيليات فيه.

ثالثها: حذف الأسانيد.

وأرى أن أعرض لكل سبب من هذه الأسباب الثلاثة المجملة بالإيضاح والتفصيل، حتى يتبيّن لنا مقدار ما كان لكل منها من الأثر في فقدان الثقة بكثير من الروايات المأثورة في التفسير.

أولاً: الوضع في التفسير

* نشأة الوضع في التفسير:

نشأ الوضع في التفسير مع نشأته في الحديث، لأنهما كانا أول الأمر مزيجاً لا يستقل أحدهما عن الآخر، فكما أننا نجد في الحديث: الصحيح والحسن والضعيف، وفي رواته مَنْ هو موثوق به، ياسياً، وتفرَّقوا إلى شيعة وخوارج وجمهور،

وَوُجِدَ مِنْ أَهْلِ الْبِدْعِ وَالْأَهْوَاءِ مَنْ رَوَّجُوا لِبِدْعِهِمْ، وَتَعْصَبُوا لِأَهْوَائِهِمْ، وَدَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ مَنْ تَبَطَّنَ الْكُفْرَ وَالتَّحْفَ الْإِسْلَامِ بِقَصْدِ الْكَيْدِ لَهُ، وَتَضْلِيلِ أَهْلِهِ، فَوَضَعُوا مَا وَضَعُوا مِنْ رَوَايَاتٍ بَاطِلَةٍ، لِيَصِلُوا بِهَا إِلَى أَعْرَاضِهِمُ السَّيِّئَةِ، وَرَغْبَاتِهِمُ الْخَبِيثَةَ

-* أسبابه:

ويرجع الوضع في التفسير إلى أسباب متعددة: منها التعصب المذهبي، فإنَّ ما جَدَّ من افتراق الأمة إلى شيعة تطرَّفوا في حب عليّ، وخوارج انصرفوا عنه وناصبوه العدا، وجمهور المسلمين الذين وقفوا بجانب هاتين الطائفتين بدون أن يمسهنَّ شئ من ابتداع التشيع أو الخروج، جعل كل طائفة من هذه الطوائف تحاول بكل جهودها أن تؤيد مذهبها بشئ من القرآن، فنسب الشيعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وإلى عليّ وغيره من أهل البيت - رضى الله عنهما أقوالاً كثيرة من التفسير تشهد لمذهبهم. كما وضع الخوارج كثيراً من التفسير الذي يشهد لمذهبهم، ونسبوه إلى النبي صلى الله عليه وسلم أو إلى أحد أصحابه، وكان قصد كل فريق من نسبة هذه الموضوعات إلى النبي صلى الله عليه وسلم أو إلى أحد أصحابه، الترويج للمروى، والإمعان في التدليس، فإن نسبة المروى إلى الرسول عليه الصلاة والسلام أو إلى أحد الصحابة، تورث المروى ثقة وقبولاً. لا يوجد شئ منهما عندما يُنسب المروى لغير النبي عليه الصلاة والسلام أو لغير صحابي.

كذلك نجد اللون السياسي في هذا العصر يترك له أثراً بيّناً في وضع التفسير، ويُلاحَظ أن المروى عن عليّ وابن عباس رضى الله عنهما قد جاوز حد الكثرة، مما يجعلنا نميل إلى القول بأنه قد وُضع عليهما في التفسير أكثر مما وُضع علي غيرهما، والسبب في ذلك أنّ علياً وابن عباس رضى الله عنهما من بيت النبوة، فالوضع عليهما يُكسب الموضوع ثقة وقبولاً، وتقديساً ورواجاً، مما لا يكون لشئ مما يُنسب إلى غيرهما

الله عليه وسلم أو إلى أحد أصحابه، وكان قصد كل فريق من نسبة هذه الموضوعات إلى النبي صلى الله عليه وسلم أو إلى أحد أصحابه، الترويج للمروى، والإمعان في التدليس، فإن نسبة المروى إلى الرسول عليه الصلاة والسلام أو إلى أحد الصحابة، تورث المروى ثقة وقبولاً. لا يوجد شئ منهما عندما يُنسب المروى لغير النبي عليه الصلاة والسلام أو لغير صحابي.

كذلك نجد اللون السياسي في هذا العصر يترك له أثراً بيّناً في وضع التفسير، ويُلاحَظ أن المروى عن عليّ وابن عباس رضى الله عنهما قد جاوز حد الكثرة، مما يجعلنا نميل إلى القول بأنه قد وُضع عليهما في التفسير أكثر مما وُضع علي غيرهما، والسبب في ذلك أنّ علياً وابن عباس رضى الله عنهما من بيت النبوة، فالوضع عليهما يُكسب الموضوع ثقة وقبولاً، وتقديساً ورواجاً، مما لا يكون لشئ مما يُنسب إلى غيرهما فوق هذا فقد كان لعليّ من الشيعة ما ليس لغيره، فنسبوا إليه من القول في التفسير ما يظنون أنه يُعلى من قدره، ويرفع من شأنه. وابن عباس كان من نسله الخلفاء العباسيون، فوجد من الناس مَنْ تَرَلَّف إليهم، وتقرَّب بكثرة ما يرويه لهم عن جدهم ابن عباس، مما يدل على أن اللون السياسي كان له أثر ظاهر في وضع التفسير.

كذلك نجد من أسباب الوضع في التفسير ما قصده أعداء الإسلام الذين اندسوا بين أبنائه متظاهرين بالإسلام، من الكيد له ولأهله، فعمدوا إلى الدس والوضع في التفسير بعد أن عجزوا عن أن ينالوا من هذا الدين عن طريق الحرب والقوة، أو عن طريق البرهان والحجّة.

أثر الوضع في التفسير:

وكان من وراء هذه الكثرة التي دخلت في التفسير ودسَّت عليه، أن ضاع كثير من هذا التراث العظيم الذي خلفه لنا أعلام المفسرين من السلف، لأن ما أحاط به من شكوك، أفقدنا الثقة به، وجعلنا نرد كل رواية تطرَّق إليها شئ من الضعف، وربما كانت صحيحة في ذاتها.

كما أن اختلاط الصحيح من هذه الروايات بالسقيم منها، جعل بعض مَنْ ينظر فيها وليس عنده القدرة على التمييز بين

الصحيح والعليل، ينظر إلى جميع ما رُوِيَ بعين واحدة، فيحكم على الجميع بالصحة، وربما وَجَدَ من ذلك روايتين متناقضتين عن مفسّر واحد فيتعمدهم بالتناقض في قوله، ويتهم المسلمين بقبول هذه الروايات المتناقضة المتضاربة.

ثانياً: الإسرائيليات

* تمهيد - في بيان المراد بالإسرائيليات ومدى الصلة بينها وبين القرآن:

لفظ الإسرائيليات وإن كان يدل بظاهره على اللون اليهودي للتفسير، وما كان للثقافة اليهودية من أثر ظاهر فيه، إلا أننا نريد به ما هو أوسع من ذلك وأشمل، فنريد به ما يعم اللون اليهودي واللون النصراني للتفسير، وما تأثر به التفسير من الثقافتين اليهودية والنصرانية.

وإنما أطلقنا على جميع ذلك لفظ "الإسرائيليات"، من باب التغليب للجانب اليهودي على الجانب النصراني، فإن الجانب اليهودي هو الذى اشتهر أمره فكثرت النقل عنه، وذلك لكثرة أهله، وظهور أمرهم، وشدة اختلاطهم بالمسلمين من مبدأ ظهور الإسلام إلى أن بسط رواقه على كثير من بلاد العالم ودخل الناس في دين الله أفواجا.

كان لليهود ثقافة دينية، وكان للنصارى ثقافة دينية كذلك، وكلتا الثقافتين كان لها أثر في التفسير إلى حد ما. أما اليهود، فإن ثقافتهم تعتمد أول ما تعتمد على التوراة التى أشار إليها القرآن بقوله: {إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ} [المائدة: ٤٤] ودلّ على بعض ما جاء فيها من أحكام بقوله: {وَكُنْتُمْ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ مُّكْتَنِبِينَ} [البقرة: ١٧٨] والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاصاً} [المائدة: ٤٥] ..

وكثيراً ما يستعمل المسلمون واليهود أنفسهم لفظ "التوراة" ويطلقونه على كل الكتب المقدّسة عند اليهود فيشمل الزبور وغيره. وتسمى التوراة بما اشتملت عليه من الأسفار الموسوية وغيرها: العهد القديم.

وكان لليهود بجانب التوراة سنن ونصائح وشروح لم تؤخذ عن موسى بطريق الكتابة، وإنما تحمّلوها ونقلوها بطريق المشافهة، ثم نمت على مرور الزمن وتعاقب الأجيال، ثم دُوّنت وعُرِفَت باسم التلمود، ووُجِدَ بجوار ذلك كثير من الأدب اليهودي، والقصاص، والتاريخ، والتشريع، وأما النصراني فكانت ثقافتهم تعتمد - فى الغالب الأهم - على الإنجيل، وقد أشار القرآن إلى أنه من كتب السماء التى نزلت على الرسل فقال: {لَتَمَّ قَفَيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَيْنَا بِعَيْسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ} [الحديد: ٢٧] وغير هذا كثير من آيات القرآن التى تشهد له بذلك.

والأنجيل المعتمدة عند النصراني يُطلق عليها وعلى ما انضم إليها من رسائل الرسل، اسم: العهد الجديد. والكتاب المقدّس لدى النصراني يشمل: التوراة والإنجيل ويُطلق عليه: العهد القديم والعهد الجديد.

وكان طبيعياً أن يُشرح الإنجيل بشروح مختلفة، كانت فيما بعد منبعاً من منابع الثقافة النصرانية، كما وُجِدَ بجوار ذلك ما زاده النصراني من القصص، والأخبار، والتعاليم، التى زعموا أنهم تلقوها عن عيسى عليه السلام، وهذا كله كان من ينابيع هذه الثقافة النصرانية إذن ... فقد كانت التوراة المصدر الأول لثقافة اليهودية الدينية، كما كان الإنجيل المصدر الأهم لثقافة النصراني الدينية.

وإذا نحن أجلنا النظر فى التوراة والإنجيل نجد أنهما قد اشتملا على كثير مما اشتمل عليه القرآن الكريم، وبخاصة ما كان له تعلق بقصص الأنبياء عليهم السلام، وذلك على اختلاف فى الإجمال والتفصيل، فالقرآن إذا عرض لقصة من قصص الأنبياء - مثلاً - فإنه ينحو فيها ناحية يخالف بها منحى التوراة والإنجيل، فتراه يقتصر على مواضع العظة، ولا يتعرض لتفصيل جزئيات المسائل، فلا يذكر تاريخ الوقائع، ولا أسماء البلدان التى حصلت فيها، كما أنه لا يذكر فى الغالب أسماء الأشخاص الذين جرت على أيديهم بعض الحوادث.

ويدخل فى تفاصيل الجزئيات، بل يتخير من ذلك ما يمس جوهر الموضوع، وما يتعلق بموضع العبرة. وإذا نحن تتبعنا هذه الموضوعات التى اتفق فى ذكرها القرآن والتوراة، أو القرآن والإنجيل، ثم أخذنا موضوعاً منها، وقارنا بين ما جاء فى الكتابين وجدنا اختلاف المسلك ظاهراً جلياً.

فمثلاً قصة آدم عليه السلام، ورد ذكرها في التوراة، كما وردت في القرآن في مواضع كثيرة، أطولها ما ورد في سورة البقرة، وما ورد في سورة الأعراف. وبالنظر في هذه الآيات من السورتين، نجد أن القرآن لم يتعرض لمكان الجنة، ولا لنوع الشجرة التي نُهيَ آدم وزوجه عن الأكل منها، ولا بيّن الحيوان الذي تقمصه الشيطان فدخل الجنة ليزل آدم وزوجه. كما لم يتعرّض للبقعة التي هبط إليها آدم وزوجه وأقام بها بعد خروجهما من الجنة ... إلى آخر ما يتعلق بهذه القصة من تفصيل وتوضيح.

ي بطنها وتأكل التراب، وانتقم من حواولكن نظرة واحدة يجيئها الإنسان في التوراة يجد بعدها أنها قد تعرّضت لكل ذلك وأكثر منه. فأبانت أن الجنة في عدن شرقاً، وأن الشجرة التي نُهيّا عنها كانت في وسط الجنة، وأنها شجرة الحياة، وأنها شجرة معرفة الخير والشر، وأن الذي خاطب حواء هو الحيّة، وذكرت ما انتقم الله به من الحيّة التي تقمصها إبليس، بأن جعلها تسعى بتعبها هي ونسلها في حبلها ... إلى آخر ما ذكر فيها مما يتعلق بهذه القصة ومثلاً نجد القرآن الكريم قد اشتمل على موضوعات وردت في الإنجيل، فمن ذلك قصة عيسى ومريم، ومعجزات عيسى عليه السلام، كل ذلك جاء به القرآن في أسلوب موجز، يقتصر على موضع العظة، ومكان العبرة، فلم يتعرّض القرآن لنسب عيسى مفضلاً، ولا لكيفية ولادته، ولا للمكان الذي وُلِدَ فيه، ولا لذكر الشخص الذي قُذِفَ به مريم، كما لم يتعرض لنوع الطعام الذي نزلت به مائدة السماء، ولا لحوادث جزئية من إبراء عيسى للأكمه والأبرص وإحياء الموتى

المحاضرة العاشرة

تابع : أسباب الضعف في التفسير بالمأثور

ثانيا دخول الإسرائيليات

مبدأ دخول الإسرائيليات في التفسير وتطوره:

نستطيع أن نقول: إن دخول الإسرائيليات في التفسير، أمر يرجع إلى عهد الصحابة رضى الله عنهم، وذلك نظراً لاتفاق القرآن مع التوراة والإنجيل في ذكر بعض المسائل كما تقدّم، مع فارق واحد، هو الإيجاز في القرآن، والبسط والإطناب في التوراة والإنجيل. وسبق لنا القول بأن الرجوع إلى أهل الكتاب، كان مصدراً من مصادر التفسير عند الصحابة، فكان الصحابي إذا مرَّ على قصة من قصص القرآن يجد من نفسه ميلاً إلى أن يسأل عن بعض ما طواه القرآن منها ولم يتعرض له، فلا يجد من يجيبه على سؤاله سوى هؤلاء النفر الذين دخلوا في الإسلام، وحملوا إلى أهله ما معهم من ثقافة دينية، فألقوا إليهم ما ألقوا من الأخبار والقصص الديني.

غير أن الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - لم يسألوا أهل الكتاب عن كل شيء، كانوا لا يسألون عن الأشياء التي يُشبه أن يكون السؤال عنها نوعاً من اللهو والعبث، ولم يقبلوا منهم كل شيء، بل كانوا يسألون عن أشياء لا تعدو أن تكون توضيحاً للقصة وبياناً لما أجمله القرآن منها، مع توقعهم فيما يُلقى إليهم، فلا يحكمون عليه بصدق أو بكذب ما دام يحتمل كلا الأمرين، امتثالاً لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "لا تُصدّقوا أهل الكتاب ولا تُكذّبوهم، وقولوا: {أَمْنَا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا} [المائدة: ٥٩] .. الآية.

كما أنهم لم يسألوهم عن شيء مما يتعلق بالعقيدة أو يتصل بالأحكام، اللهم إلا إذا كان على جهة الاستشهاد والتقوية لما جاء به القرآن. كذلك كانوا لا يعدلون عما ثبت عن الرسول صلى الله عليه وسلم من ذلك إلى سؤال أهل الكتاب، لأنه إذا ثبت الشيء عن الرسول صلى الله عليه وسلم فليس لهم أن يعدلوا عنه إلى غيره، كالسؤال عن لون كلب أهل الكهف، والبعض الذي ضرب به القتل من البقرة، ومقدار سفينة نوح، ونوع خشبها، واسم الغلام الذي قتله الخضر.. وغير ذلك، ولهذا قال الدهلوي بعد أن بيّن أن السؤال عن مثل هذا تكلف ما لا يعنى: "وكانت الصحابة رضى الله عنهم يعدون مثل ذلك قبيحاً من قبيل تضييع الأوقات".

فقد اختلف السلف في تعيين هذه الساعة، وهل هي باقية أو رُفِعَتْ؟ وإذا كانت باقية، فهل هي في جمعة واحدة من السنة أو في كل جمعة منها؟ فنجد أبا هريرة رضى الله عنه يسأل كعب الأحبار عن ذلك، فيجيبه كعب: بأنها في جمعة واحدة من السنة، فيرد عليه أبو هريرة قوله هذا وبيّن له: أنها في كل جمعة، فيرجع كعب إلى التوراة، فيرى الصواب مع أبي هريرة فيرجع إليه.

كما نجد أبا هريرة أيضاً يسأل عبد الله بن سلام عن تحديد هذه الساعة ويقول له: أخبرني ولا تضن عليّ، فيجيبه عبد الله بن سلام بأنها آخر ساعة في يوم الجمعة، فيرد

به أبو هريرة بقوله: كيف تكون آخر ساعة في يوم الجمعة وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يصادفها عبد مسلم وهو يُصَلِّي" وتلك الساعة لا يُصَلِّي فيها؟ فيجيبه عبد الله بن سلام بقوله: ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَنْ جلس مجلساً ينتظر الصلاة فهو في صلاة حتى يُصَلِّي"؟ ... الحديث.

فمثل هذه المراجعة التي كانت بين أبي هريرة وكعب تارة، وبينه وبين ابن سلام تارة أخرى، تدلنا على أن الصحابة كانوا لا يقبلون كل ما يقال لهم، بل كانوا يتحررون الصواب ما استطاعوا، ويرثون على أهل الكتاب أقوالهم إن كانت لا توافق وجه الصواب. ومهما يكن من شيء فإن الصحابة - رضى الله عنهم - لم يخرجوا عن دائرة الجواز التي حدّها لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمّا فهموه من الإباحة في قوله عليه السلام: "بلغوا عنى ولو آية، وحدّثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج، ومَنْ كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار".

كما أنهم لم يخالفوا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تُصدِّقوا أهل الكتاب ولا تُكذِّبُوهم، وقولوا: أَمَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا ... الآية" ولا تعارض بين هذين الحديثين، لأن الأول أباح لهم أن يُحدِّثوا عما وقع لبني إسرائيل من الأعاجيب، لما فيها من العبرة والعظة، وهذا بشرط أن يعلموا أنه ليس مكذوباً، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يعقل أن يبيح لهم رواية المكذوب. مقالة ابن خلدون في الإسرائيليات: ونرى بعد هذا أن نذكر عبارة ابن خلدون في مقدمته، ليتبين لنا أسباب الاستكثار من هذه المرويات الإسرائيلية، وكيف تسرَّبت إلى المسلمين، فإنه خير من كتب في هذا الموضوع، وإليك نص عبارته: قال رحمه الله: "... وقد جمع المتقدمون في ذلك - يعنى التفسير النقلي - وأوعوا إلا أن كتبهم ومنقولاتهم تشتمل على الغث والسمين، والمقبول والمردود. والسبب في ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم. وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية، وإذا تشوقوا إلى معرفة شيء مما تشوق إليه النفوس البشرية في أسباب المكونات، وبدء الخليقة، وأسرار الوجود فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم، ويستفيدونه منهم، وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى. وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم، ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب، " ومعظمهم من "حمير" الذين أخذوا بدين اليهودية، فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التي يحتاطون لها، مثل أخبار بدء الخليقة، وما يرجع إلى الحدثن والملاحم، وأمثال ذلك وهؤلاء مثل: كعب الأحمار، ووهب بن منبه، وعبد الله بن سلام، وأمثالهم، فامتلات التفاسير من المنقولات عنهم، وفي أمثال هذه الأغراض أخبار موقوفة عليهم، وليست مما يُرجع إلى الأحكام فيتحرى فيها الصحة التي يجب بها العمل، وتساهل المفسرون في مثل ذلك، وملأوا الكتب بهذه المنقولات، وأصلها - كما قلنا - عن أهل التوراة الذين يسكنون البادية ولا تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلونه من ذلك، إلا أنهم بعد صيتهم، وعظمت أقدارهم، لما كانوا عليه من المقامات في الدين والملة، فتلقيت بالقبول من يومئذ من هذا يتضح لنا أن ابن خلدون أرجع الأمر إلى اعتبارات اجتماعية وأخرى دينية، فعد من الاعتبارات الاجتماعية غلبة البداوة والأمية على العرب وتشوقهم لمعرفة ما تشوق إليه النفوس البشرية، من أسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود، وهم إنما يسألون في ذلك أهل الكتاب قبلهم.

عدَّ من الاعتبارات الدينية التي سوَّغت لهم تلقى المرويات في تساهل وعدم تحر للصحة "أن مثل هذه المنقولات ليست مما يرجع إلى الأحكام فيتحرى فيها الصحة التي يجب بها العمل".

وسواء أكانت هذه هي كل الأسباب أم كانت هناك أسباب أخرى، فإن كثيراً من كتب التفسير قد اتسع لما قيل من ذلك وأكثر، حتى أصبح ما فيها مزيجاً متنوعاً من مخلفات الأديان المختلفة، والمذاهب المتباينة.

أثر الإسرائيليات في التفسير:

ولقد كان لهذه الإسرائيليات التي أخذها المفسرون عن أهل الكتاب وشرحوا بها كتاب الله تعالى أثر سئ في التفسير، ذلك لأن الأمر لم يقف على ما كان عليه في عهد الصحابة، بل زادوا على ذلك فرووا كل ما قيل لهم إن صدقاً وإن كذباً، بل ودخل هذا النوع من التفسير كثير من القصص الخيالي المخترع، مما جعل الناظر في كتب التفسير التي هذا شأنها يكاد لا يقبل شيئاً مما جاء فيها، لاعتقاده أنَّ الكل من واد واحد. وفي الحق أنَّ المكثرين من هذه الإسرائيليات وضعوا الشوك في طريق المشتغلين بالتفسير، وذهبوا بكثير من الأخبار الصحيحة بجانب ما رووه من قصص مكذوب وأخبار لا تصح، كما أن نسبة هذه الإسرائيليات التي لا يكاد يصح شيء منها إلى بعض من آمن من أهل الكتاب، جعلت بعض الناس ينظر إليهم بعين الاتهام والريبة. وسوف نعرض لهذا فيما بعد، ونرد عليه إن شاء الله تعالى.

قيمة ما يُروى من الإسرائيليات تنقسم الأخبار الإسرائيلية إلى أقسام ثلاثة، وهي ما يأتي:

القسم الأول: ما يُعلم صحته بأن نُقل عن النبي صلى الله عليه وسلم نقلاً صحيحاً، وذلك كتعيين اسم صاحب موسى عليه السلام بأنه الخضر، فقد جاء هذا الاسم صريحاً على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم كما عند البخارى أو كان له شاهد من الشرع يؤيده. وهذا القسم صحيح مقبول.

القسم الثاني: ما يُعلم كذبه بأن يناقض ما عرفناه من شرعنا، أو كان لا يتفق مع العقل، وهذا القسم لا يصح قبوله ولا روايته.

القسم الثالث: ما هو مسكوت عنه، لا هو من قبيل الأول، ولا هو من قبيل الثاني، وهذا القسم نتوقف فيه، فلا نؤمن به ولا نُكذِّبه، وتجاوز حكايته، لما تقدّم من قوله صلى الله عليه وسلم: "لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا أئمانا بالله وما انزل إلينا ذا القسم غالبه مما ليس فيه فائدة تعود إلى أمر ديني، ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في مثل هذا اختلافاً كثيراً، ويأتى عن المفسرين خلاف بسبب ذلك، كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف، ولون كلبهم، وعصا موسى من أى الشجر كانت، وأسماء الطيور التى أحيها الله لإبراهيم، وتعيين بعض البقرة الذى ضرب به قتيل بنى إسرائيل، ونوع الشجرة التى كلّم الله منها موسى.. إلى غير ذلك مما أبهمه الله فى القرآن ولا فائدة فى تعيينه تعود على المكلفين فى دينهم أو دينهم. ثم إذا جاء شئ من هذا القبيل - أعنى ما سكت عنه الشرع ولم يكن فيه ما يؤيده أو يفنده - عن أحد من الصحابة بطريق صحيح، فإن كان قد جزم به فهو كالقسم الأول، يُقبل ولا يُرد، لأنه لا يعقل أن يكون قد أخذ عن أهل الكتاب بعد ما علم من نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تصديقهم. وإن كان لم يجزم به فالنفس أسكن إلى قبوله، لأن احتمال أن يكون الصحابي قد سمعه من النبى صلى الله عليه وسلم، أو ممن سمعه منه، أقوى من احتمال السماع من أهل الكتاب، ولا سيما بعد ما تقرر من أن أخذ الصحابة عن أهل الكتاب كان قليلاً بالنسبة لغيرهم من التابعين ومن يليهم.

موقف المفسر إزاء هذه الإسرائيليات:

علمنا أن كثرة النقل عن أهل الكتاب بدون تفرقة بين الصحيح والعليل دسيئة دخلت فى ديننا واستفحل خطرهما، كما علمنا أن قوله صلى الله عليه وسلم: "لا تُصدّقوا أهل الكتاب ولا تُكذّبوهم" قاعدة مقرّرة لا يصح العدول عنها بأى حال من الأحوال، وبعد هذا وذاك نقول: إنه يجب على المفسر أن يكون يقظاً إلى أبعد حدود اليقظة، ناقداً إلى نهاية ما يصل إليه النقاد من دقة وروية حتى يستطيع أن يستخلص من هذا الهشيم المركوم من الإسرائيليات ما يناسب روح القرآن، ويتفق مع العقل والنقل، كما يجب عليه أن لا يرتكب النقل عن أهل الكتاب إذا كان فى سُنّة نبينا صلى الله عليه وسلم بيان لمجمل القرآن، فمثلاً حيث وجد لقوله- تعالى: : {وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ} {ص: ٣٤} مجمل فى السُنّة النبوية الصحيحة وهو قصة ترك "إن شاء الله" والمواخذة عليه فلا يرتكب قصة صخر المارد.

كذلك يجب على المفسر أن يلحظ أن الضرورى يتقدّر بقدر الحاجة، فلا يذكر فى تفسيره شيئاً من ذلك إلا بقدر ما يقتضيه بيان الإجمال، ليحصل التصديق بشهادة القرآن فيكيف اللسان عن الزيادة.

نعم ... إذا اختلف المتقدمون فى شئ من هذا القبيل وكثرت أقوالهم ونقولهم، فلا مانع من نقل المفسر لهذه الأقوال جميعاً، على أن ينبه على الصحيح منها، ويبطل الباطل، وليس أن يحكى الخلاف ويطلقه، ولا ينبه على الصحيح من الأقوال، لأن مثل هذا العمل يُعد ناقصاً لا فائدة فيه ما دام قد خلط الصحيح بالعليل، ووضع أمام القارئ من الأقوال المختلفة ما يسبب له الحيرة والاضطراب.

على أن من الخير للمفسر أن يعرض كل الإعراض عن هذه الإسرائيليات وأن يمسك عما لا طائل تحته مما يُعد صارفاً عن القرآن، وشاغلاً عن التدبير فى حكمه وأحكامه، وبدهى أن هذا أحكم وأسلم. هذا.. وقد يشير إلى ما قلناه من جواز نقل الخلاف من المتقدمين على شريطة استيفاء الأقوال وتزييف الزائف منها وتصحيح الصحيح، وأن من الخير أن يمسك الإنسان عن الخوض فيما لا طائل تحته، ما جاء فى الآية [٢٢] من سورة الكهف من قوله تعالى: {سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامُنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهراً وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحداً} .. فقد اشتملت هذه الآية الكريمة - كما يقول ابن تيمية - على الأدب فى هذا المقام، وتعليم ما ينبغى فى مثل هذا، فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال ضعّف القولين الأولين، وسكت عن الثالث، فدلّ على صحته، إذ لو كان باطلاً لرده كما ردهما، ثم أرشد إلى أن الاطلاع على عدّتهم لا طائل تحته، فيقال فى مثل هذا: {قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ} .. فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس ممن أطلعه الله عليه، فلهاذاقال: {فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهراً} .. أى لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته، ولا تسألهم عن ذلك، فإنهم لا يعلمون من ذلك إلى رجم الغيب .

المحاضرة الحادية عشر

أقطاب الروايات الإسرائيلية

أقطاب الروايات الإسرائيلية:

يتصفح الإنسان كتب التفسير بالمأثور، فلا يلبث أن يلحظ أن غالب ما يرى فيها من إسرائيليّات، يكاد يدور على أربعة أشخاص، هم: عبد الله ابن سلام، وكعب الأحبار، ووهب بن منبّه، وعبد الملك بن عبد العزيز ابن جريج.. وهؤلاء الأربعة اختلفت أنظار الناس في الحكم عليهم والثقة بهم، فمنهم من ارتفع بهم عن حد التهمة، ومنهم من رماهم بالكذب وعدم التثبت في الرواية ولهذا أرى أن أعرض لكل فرد منهم، لأكشف عن قيمته في باب الرواية، وبخاصة ما يرجع من ذلك إلى ناحية التفسير، لنرى أي الفريقين أصدق في حكمه، وأدق في نقده.

١- عبد الله بن سلام

* ترجمته:

هو أبو يوسف عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي الأنصاري وهو من ولد يوسف بن يعقوب عليهما السلام. أسلم عند قدوم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة. ويحدثنا البخاري عن قصة إسلامه فيقول في ضمن حديث ساقه في باب الهجرة: " ... فلما جاء نبي الله صلى الله عليه وسلم، جاء عبد الله بن سلام فقال: أشهد أنك رسول الله، وأنت جئت بحق، وقد علمت اليهود أنني سيدهم وابن سيدهم، وأعلمهم وابن أعلمهم، فادعهم فاسألهم عنى قبل أن يعلموا أنني قد أسلمت، فإنهم إن يعلموا أنني قد أسلمت قالوا فيّ ما ليس فيّ، فأرسل نبي الله صلى الله عليه وسلم، فأقبلوا فدخلوا عليه: ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم "يا معشر اليهود؛ ويلكم، اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو، إنكم لتعلمون أنني رسول الله حقاً، وأنى جئتم بحق فأسلموا"، قالوا: ما نعلمه، قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم، قالها ثلاث مرات، قال: "فأى رجل فيكم عبد الله بن سلام؟" قالوا: ذلك سيدنا وابن سيدنا، وأعلمنا وابن أعلمنا، قال: "أفرأيتم إن أسلم؟" قالوا: حاشا لله، ما كان ليسلم، قال: "أفرأيتم إن أسلم؟" قالوا: حاشا لله ما كان ليسلم، قال: "يا بن سلام.. اخرج عليهم"، فخرج، فقال: يا معشر اليهود؛ اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو، إنكم لتعلمون أنه رسول الله وأنه جاء بحق، فقالوا: كذبت، فأخرجهم رسول الله صلى الله عليه وسلم. قيل: وكان اسمه الحصين، فسماه النبي صلى الله عليه وسلم: "عبد الله"، وشهد له بالجنة. ونجد البخاري رضى الله عن - عند الكلام عن مناقب الأنصار - يُورد لعبد الله بن سلام باباً مستقلاً في مناقبه، فروى فيما روى من ذلك بإسناده إلى سعد بن أبي وقاص أنه قال: ما سمعتُ النبي صلى الله عليه وسلم يقول لأحد يمشى على الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام، وقال: فيه نزلت هذه الآية: {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ} [الأحقاف: ١٠] ... الآية.

ومما يُذكر عنه رحمه الله: أنه وقف خطيباً في المتألمين على عثمان رضى الله عنه يدافع عنه، ويُخدّل الثائرين، فقد روى عبد الملك بن عمير عن ابن أخي عبد الله بن سلام، قال: لما أريد قتل عثمان رضى الله عنه، جاء عبد الله بن سلام، فقال له عثمان: ما جاء بك؟ قال: جئتُ في نصرك، قال: أخرج إلى الناس فاطردهم عنى فإنك خارج خير لى منك داخل، فخرج عبد الله إلى الناس فقال: يا أيها الناس؛ إنه كان اسمى في الجاهلية فلاناً، فسماني رسول الله صلى الله عليه وسلم: عبد الله، ونزلت فيّ آيات من كتاب الله عزّ وجلّ، نزل فيّ: {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ قَامَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ} .. ونزل في: {قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ} [الرعد: ٤٣] .. إن الله سيفاً مغموداً، وإن الملائكة قد جاورتكم في بلدكم هذا الذي نزل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالله الله في هذا الرجل أن تقتلوه، فوالله لئن قتلتموه لتطردن جيرانكم من الملائكة وليسلن سيف الله المغمود فيكم فلا يُعمد إلى يوم القيامة. قالوا: اقتلوا اليهودى.. وقتلوا عثمان"ى عن النبي صلى الله عليه وسلم، وروى عنه ابنه: يوسف ومحمد، وعوف بن مالك، وأبو هريرة، وأبو بردة بن أبي موسى، وعطاء بن يسار، وغيرهم. وشهد مع عمر رضى الله عنه فتح بيت المقدس والجابية. ومات بالمدينة سنة ٤٣ هـ (ثلاث وأربعين من الهجرة) ، وقيل غير ذلك. وقد عدّه بعضهم في البدرين، أما ابن سعد فذكره في الطبقة الثالثة ممن شهد الخندق وما بعدها.

* مبلغه من العلم والعدالة:

أما مبلغه من العلم، فيكفي ما جاء في الحديث البخارى السابق من إخباره عن نفسه: أنه أعلم اليهود وابن أعلمهم، وإقرار اليهود بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك. والحق أنه اشتهر بين الصحابة بالعلم، حتى لقد روى أنه لما حضر معاذ بن جبل الموت قيل له: يا أبا عبد الرحمن أوصنا، فقال: أجلسوني ... قال: إن العلم والإيمان عند أربعة رهط: عند عويمر أبى الدرداء، وعند سلمان الفارسي، وعند عبد الله بن مسعود، وعند عبد الله ابن سلام الذى كان يهودياً فأسلم، فإنى سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إنه عاشر عشرة فى الجنة وليس عجيباً أن يكون عبد الله بن سلام فى هذه المكانة العالية من العلم بعد أن اجتمع لديه علم التوراة وعلم القرآن، وبعد أن امتزجت فيه الثقافتان اليهودية والإسلامية، ولقد نقل عنه المسلمون كثيراً مما يدل على علمه بالتوراة وما حولها، ونجد ابن جرير الطبرى ينسب إليه فى تاريخه كثيراً من الأقوال فى المسائل التاريخية الدينية، كما نجده يتجمع حول اسمه كثير من المسائل الإسرائيلية، يرونها كثير من المفسرين فى كتبهم.

ونحن أمام ما يُروى عنه من ذلك لا نُزيّف كل ما قيل، ولا نقبل كل ما قيل، بل علينا أن نعرض كل ما يُروى عنه على مقياس الصحة المعترف فى باب الرواية، فما صح قبلناه، وما لم يصح رفضناه.

هذا.. وإننا لا نستطيع أن نتهم الرجل فى علمه، ولا فى ثقته وعدالته، بعد ما علمت أنه من خيار الصحابة وأعلمهم، وبعد ما جاء من آيات القرآن، وبعد أن اعتمده البخارى وغيره من أهل الحديث، كما أننا لم نجد من أصحاب الكتب التى بين أيدينا من طعن عليه فى علمه، أو نسب إليه من التهم مثل ما نسب إلى كعب الأخبار ووهب بن منبّه السبب الثالث حذف الإسناد هو السبب الثالث والأخير الذى يرجع إليه ضعف التفسير المأثور، وسبق أن أشرنا إلى مبدأ اختصار الأسانيد، ونعود إليه فنقول:

إنّ الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - كانوا يتحرون الصحة فيما يتحملون، وكان الواحد منهم لا يروى حديثاً إلا وهو مثبت مما يقول، ولكن لم يُعرف عن الصحابة أنهم كانوا يسألون عن الإسناد، لما عُرفوا به جميعاً من العدالة والأمانة. وإذا كان الأمر قد وصل ببعضهم إلى أنه كان لا يقبل الحديث إلا بعد أن تثبت عنده صحته بالشهادة أو اليمين كما دلّت على ذلك الآثار الكثيرة، فإن الغرض من ذلك هو زيادة التأكد والتثبت، لا عدم الثقة بمن يروون عنه منهم، فقد روى أن عمر قال لأبى بن كعب - وقد روى له حديثاً - لتأيننى على ما تقول ببيّنة، فخرج فإذا ناس من الأنصار فذكر لهم، قالوا: قد سمعنا هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال عمر: أما إنى لم أتهمك، ولكن أحببت أن أتثبت".

ثم جاء عصر التابعين، وفيه ظهر الوضع وفشا الكذب، فكانوا لا يقبلون حديثاً إلا إذا جاء بسنده، وتثبتت لهم عدالة رواته، أما إن حُذِفَ السند، أو ذُكِرَ وكان فى رواته من لا يُوثق بحديثه، فإنهم كانوا لا يقبلون الحديث الذى هذا شأنه، فقد روى الإمام مسلم فى مقدمة صحيحه عن ابن سيرين أنه قال: "لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا: سموا لنا رجالكم".

ظل الأمر فى عهد التابعين على هذا، فكان ما يروونه من التفسير المأثور عن النبى صلى الله عليه وسلم أو عن الصحابة، لا يروونه إلا بإسناده، ثم جاء بعد عصر التابعين من جمّع التفسير، ودوّن ما جمّع لديه من ذلك، فألّفت تفاسير تجمع أقوال النبى صلى الله عليه وسلم فى التفسير، وأقوال الصحابة والتابعين، مع ذكر الأسانيد، كتفسير سفيان بن عيينة، ووكيع بن الجراح، وغيرهما ممن تقدّم ذكرهم.

ثم جاء بعد هؤلاء أقوام ألّفوا فى التفسير، فاختصروا الأسانيد، ونقلوا الأقوال غير معزّوة لقائلها، ولم يتحروا الصحة فيما يروون، فدخل من هنا الدخيل، والتبس الصحيح بالعليل.

ثم صار كل من يسنح له قول يورده، ومن يخطر بباله شئ يعتمده، ثم ينقل ذلك عنه من يجئ بعده، ظاناً أنّ له أصلاً، غير ملتفت إلى تحرير ما ورد عن السلف. الحق أن هذا السبب يكاد يكون أخطر الأسباب جميعاً، لأن حذف الأسانيد

جعل مَنْ ينظر في هذه الكتب يظن صحة كل ما جاء فيها، وجعل كثيراً من المفسرين ينقلون عنها ما فيها من الإسرائيليات والقصاص المخترع على أنه صحيح كله، مع أن فيها ما يخالف النقل ولا يتفق مع العقل.

وإذا كان للوضع خطره، وللإسرائيليات خطرهما، فإن هذا الخطر كان من الممكن تلافيه لو ذُكرت لنا هذه الأقوال بأسانيدها، ولكن حذفها - وللأسف - عمى علينا كل شيء، وليت هؤلاء الذين حذفوا الأسانيد وعنوا بجمع شتات الأقوال فعلوا كما فعل ابن جرير من رواية كل قول بإسناده، فهو وإن كان لم يتحر الصحة فيما يرويها، إلا أن عذره في ذلك، أنه ذكر لنا السند مع كل رواية يرويها، وكانوا يرون أنهم متى ذكروا السند فقد خرجوا عن العهدة، فإن أحوال الرجال كانت معروفة في العهد الأول، وبذلك تعرف قيمة ما يروونه من ضعف وصحة.

أشهر الكتب المؤلفة في التفسير بالمأثور

لا نريد أن نستقصى هنا جميع الكتب المدونة في التفسير المأثور، لأن هذا أمر لا يتيسر لنا، نظراً لعدم وقوع كثير منها في أيدينا. ولو تيسر لنا لوقفنا عند عزمي هذا: وهو أني لا أتعرض لكل كتاب ألف في هذا النوع من التفسير، بل أتكلم عما اشتهر وكثر تداوله فحسب، لأنني لو ذهبت أتكلم عن جميع ما دُون من هذه الكتب، كتاباً كتاباً، لطلت على الأمر، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: "إن المُنبَتَّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى".

لهذا رأيت أن أتكلم عن ثمانية كتب منها، هي أهمها وأشهرها وأكثرها تداولاً، وسبيلي في هذا: أن أعرض أولاً لنبذة مختصرة عن المؤلف، ثم أبين خصائص كل كتاب وطريقة مؤلفه فيه، وهذه الكتب التي وقع عليها اختياري هي ما يأتي:

١ - جامع البيان في تفسير القرآن: لابن جرير الطبري

٢ - بحر العلوم: لأبي الليث السمرقندي

٣ - الكشف والبيان عن تفسير القرآن: لأبي إسحاق الثعلبي

٤ - معالم التنزيل: لأبي محمد الحسين البغوي

٥ - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: لابن عطية الأندلسي.

٦ - تفسير القرآن العظيم: لأبي الفداء الحافظ ابن كثير

٧ - الجواهر الحسان في تفسير القرآن: لعبد الرحمن الثعالبي

٨ - الدر المنثور في التفسير المأثور: لجلال الدين السيوطي

وسنتكلم عن كل واحد منها بحسب هذا الترتيب فنقول وبالله التوفيق

جامع البيان في تفسير القرآن (للطبري)

* التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير، هو أبو جعفر، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير ابن غالب الطبري، الإمام الجليل، المجتهد المطلق، صاحب التصانيف المشهورة، وهو من أهل أمل طبرستان، وُلِدَ بها سنة ٢٢٤ هـ (أربع وعشرين ومائتين من الهجرة)، ورحل من بلده في طلب العلم وهو ابن اثنى عشرة سنة، سنة ٢٣٦ هـ (ست وثلاثين ومائتين)، وطوّف في الأقاليم، فسُمعَ بمصر والشام والعراق، ثم ألقى عصاه واستقر ببغداد، وبقي بها إلى أن مات سنة ٣١٠ هـ (عشر وثلاثمائة من الهجرة).

* مبلغه من العلم والعدالة:

كان بصيراً بالقرآن، عارفاً بالمعاني، فقيهاً في أحكام القرآن، عالماً بالسنن وطرقها، وصحيحها وسقيمها، وناسخها ومنسوخها، عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من المخالفين في الأحكام، ومسائل الحلال والحرام، عارفاً بأيام الناس وأخبارهم، هذا هو ابن جرير في نظر الخطيب البغدادي وهي شهادة عالم خبير بأحوال الرجال. وذكّر أن أبا العباس بن سريج كان يقول: محمد بن جرير فقيه عالم. وهذه الشهادة جد صادقة، فإن الرجل برع في علوم كثيرة، منها: علم القراءات، والتفسير، والحديث، والفقه. والتاريخ وقد صنّف في علوم كثيرة وأبدع التأليف وأجاد فيما صنّف، فمن مصنفاته: كتاب التفسير الذي نحن بصدد. وكتاب التاريخ المعروف بتاريخ الأمم والملوك، وهو من أمهات المراجع، وكتاب القراءات، والعدد والتنزيل، وكتاب اختلاف العلماء، وتاريخ الرجال من الصحابة والتابعين، وكتاب أحكام شرائع الإسلام، ألّفه على ما أدّاه إليه اجتهاده، وكتاب التبصر في أصول الدين ... وغير هذا كثير من تصانيفه التي تدل على سعة علمه وجزارة فضله وقد اعتُبر الطبري أبا للتفسير. كما اعتُبر أبا للتاريخ الإسلامي، وذلك بالنظر لما في هذين الكتابين من الناحية العلمية العالية. ويقول ابن خلكان: إنه كان من الأئمة المجتهدين، لم يقلداً أحداً، ونُقِل أن الشيخ أبا إسحاق الشيرازي ذكره في طبقات الفقهاء في جملة المجتهدين. قالوا: وله مذهب معروف، وأصحاب ينتحلون مذهبه يقال لهم "الجريرية"، ولكن هذا المذهب الذي أسسه - على ما يظهر - بعد بحث

ولكن هذه الكتب قد اختفى معظمها من زمن بعيد، ولم يحظ منها بالبقاء إلى يومنا هذا وبالشهرة الواسعة، سوى كتاب التفسير، وكتاب التاريخ طويل، ووجد له أتباعاً من الناس، لم يستطع البقاء إلى يومنا هذا كغيره من مذاهب المسلمين، ويظهر أن ابن جرير كان قبل أن يبلغ هذه الدرجة من الاجتهاد مُتمذهباً بمذهب الشافعي، يدلنا على ذلك ما جاء في الطبقات الكبرى لابن السبكي، من أن ابن جرير قال: أظهرتُ فقه الشافعي، وأفتيتُ به ببغداد عشر سنين، وتلقاه مني ابن بشار الأحول، أستاذ أبي العباس بن سريج. وقال السيوطي في طبقات المفسرين: وكان أولاً شافعيّاً ثم انفرد بمذهب مستقل، وأقويل واختيارات، وله أتباع مقلدون، وله في الأصول والفروع كتب كثيرة.

وذكره صاحب لسان الميزان فقال: "ثقة، صادق، فيه تشيع يسير، وموالاته لا تضر ... " هذا هو ابن جرير، وهذه هي نظرات العلماء إليه، وذلك هو حكمهم عليه، ومن كل ذلك تتبين لنا قيمته ومكانته.

المحاضرة الثانية عشر

تابع أشهر المفسرين في التفسير بالمأثور

تفسير القرآن العظيم (لابن كثير)

* التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير، هو الإمام الجليل الحافظ، عماد الدين، أبو الفداء، إسماعيل بن عمرو بن كثير من ضوء بن كثير بن زرع البصرى ثم الدمشقى، الفقيه الشافعى، قَدِمَ دمشق وله سبع سنين مع أخيه بعد موت أبيه. سمع من ابن الشحنة، والآمدى، وابن عساكر، وغيرهم، كما لازم المزى وقرأ عليه تهذيب الكمال، وصاهره على ابنته. وأخذ عن ابن تيمية، وفُئِن بحبه، وامْتُنِحَ بسببه. وذكر ابن قاضى شُهبة فى طبقاته: أنه كانت له خصوصية بابن تيمية، ومناضلة عنه، واتباع له فى كثير من آرائه، وكان يفتى برأيه فى مسألة الطلاق وامْتُنِحَ بسبب ذلك وأوذى. وقال الداودى فى طبقات المفسرين: "كان قدوة العلماء والحفّاظ، وعمدة أهل المعانى والألفاظ، ولى مشيخة أم الصالح بعد موت الذهبى - وبعد موت السبكي مشيخة الحديث الأشرفية مدة يسيرة، ثم أخذت منه".

وكان مولده سن ٧٠٠ هـ (سبعمائة) أو بعدها بقليل وتوفى فى شعبان سنة ٧٧٤

- (أربع وسبعين وسبعمائة من الهجرة) ، ودُفِنَ بمقبرة الصوفية عند شيخه ابن تيمية، وكان قد كفَّ بصره فى آخر عمره. رحمه الله رحمة واسعة.

مكانته العلمية:

كان ابن كثير على مبلغ عظيم من العلم، وقد شهد له العلماء بسعة علمه، وغزارة مادته، خصوصاً فى التفسير والحديث والتاريخ. قال عنه ابن حجر: "اشتغل بالحديث مطالعة فى متونه ورجاله، وجمع التفسير وشرع فى كتاب كبير فى الأحكام لم يكمل، وجمع التاريخ الذى سمّاه البداية والنهاية، وعمل طبقات الشافعية، وشرع فى شرح البخارى.. وكان كثير الاستحضار، حسن المفاكهة، وصارت تصانيفه فى البلاد فى حياته، وانتفع بها الناس بعد وفاته، ولم يكن على طريق المحدثين فى تحصيل العوالى، وتمييز العالى من النازل، ونحو ذلك من فنونهم، وإنما هو من محدثى الفقهاء، وقد اختصر مع ذلك كتاب ابن الصلاح، وله فيه فوائد". وقال الذهبى عنه فى المعجم المختص: "الإمام المفتى، المحدث البارع، فقيه متفنن، مُحدِّث متقن، مُفسِّر نَقَّال، وله تصانيف مفيدة"، وذكره صاحب شذرات الذهب فقال: "كان كثير الاستحضار، قليل النسيان، جيد الفهم"، وقال ابن حبيب فيه: "زعيم أرباب التأويل، سمع وجمع وصنّف، وأطرب الأسماع بالفتوى وصنّف، وحَدَّث وأفاد، وطارت أوراق فتاويه فى البلاد، واشتهر بالضبط والتحرير، وانتهت إليه رئاسة العلم فى التاريخ والحديث والتفسير"، وقال فيه أحد تلاميذه ابن حجب: "أحفظ من أدركناه لمتون الحديث، وأعرفهم بجرحها ورجالها، وصحيحها وسقيمها، وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك، وما أعرف أنى اجتمعتُ به على كثرة ترددى عليه إلا واستفدتُ منه".

وعلى الجملة.. فعلم ابن كثير يتجلى بوضوح لمن يقرأ تفسيره أو تاريخه، وهما من خير ما ألف، وأجود ما أخرج الناس.

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

تفسير ابن كثير من أشهر ما دُوِّنَ فى التفسير المأثور، ويُعتبر فى هذه الناحية الكتاب الثانى بعد كتاب ابن جرير. اعتنى فيه مؤلفه بالرواية عن مفسرى السلف، ففسّر فيه كلام الله تعالى بالأحاديث والآثار مسندة إلى أصحابها، مع الكلام عما يحتاج إليه جرحاً وتعديلاً. وقد طُبِعَ هذا التفسير مع معالم التفسير للبخارى، ثم طُبِعَ مستقلاً فى أربعة أجزاء كبار.

وقد قَدَّمَ له مؤلفه بمقدمة طويلة هامة، تعرّض فيها لكثير من الأمور التى لها تعلق

واتصال بالقرآن وتفسيره، ولكن أغلب هذه المقدمة مأخوذ بنصه من كلام شيخه ابن تيمية الذى ذكره فى مقدمته فى أصول التفسير. ولقد قرأتُ فى هذا التفسير فوجدته يمتاز فى طريقتة بأنه يذكر الآية، ثم يُفسرُها بعبارة سهلة موجزة، وإن أمكن توضيح الآية بأية أخرى ذكرها وقارن بين الآيتين حتى يتبين المعنى ويظهر المراد، وهو شديد العناية بهذا النوع من التفسير الذى يسمونه تفسير القرآن بالقرآن، وهذا الكتاب أكثر ما عُرف من كتب التفسير سرداً للآيات المتناسبة فى المعنى الواحد.

ثم بعد أن يفرغ من هذا كله، يشرع فى سرد الأحاديث المرفوعة التى تتعلق بالآية، ويبين ما يُحتج به وما لا يُحتج به منها، ثم يردف هذا بأقوال الصحابة والتابعين ومن يليهم من علماء السلف.

ونجد ابن كثير يُرجح بعض الأقوال على بعض، ويُضعف بعض الروايات، ويُصحح بعضاً آخر منها، ويُعدّل بعض الرواة ويُجرح بعضاً آخر. وهذا يرجع إلى ما كان عليه من المعرفة بفنون الحديث وأحوال الرجال. وكثيراً ما نجد ابن كثير ينقل من تفسير ابن جرير، وابن أبى حاتم، وتفسير ابن عطية، وغيرهم ممن تقدّمه

ومما يمتاز به ابن كثير، أنه يُنبّه إلى ما فى التفسير المأثور من منكرات الإسرائيليات، ويُحذّر منها على وجه الإجمال تارة، وعلى وجه التعيين والبيان لبعض منكراتها تارة أخرى.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية [٦٧] وما بعدها من سورة البقرة: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبُحُوا بَقَرَةً ...} .. إلى آخر القصة، نراه يقص لنا قصة طويلة وغريبة عن طلبهم للبقرة

المخصوصة، وعن وجودهم لها عند رجل من بنى إسرائيل كان من أبرّ الناس بأبيه.. إلخ، ويروى كل ما قيل من ذلك عن بعض علماء السلف:.. ثم بعد أن يفرغ من هذا كله يقول ما نصه: "وهذه السياقات عن عبدة وأبى العالوية والسدى وغيرهم، فيها اختلاف، والظاهر أنها مأخوذة من كتب بنى إسرائيل، وهى مما يجوز نقلها ولكن لا تُصدّق ولا تُكذّب، فلهذا لا يُعتمد عليها إلا ما وافق الحق عندنا. والله أعلم".

مثلاً عند تفسيره لأول سورة "ق" نراه يعرض لمعنى هذا الحرف فى أول السورة "ق" ويقول: "ق" .. وقد روى عن بعض السلف أنهم قالوا: "ق" جبل محيط بجميع الأرض يقال له جبل قاف، وكان هذا - والله أعلم - من خرافات بنى إسرائيل التى أخذها عنهم مما لا يُصدّق ولا يُكذّب، وعندى أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم، يُلبسون به على الناس أمر دينهم، كما افترى فى هذه الأمة مع جلالة قدر علمائها حُفاظها وأئمتها أحاديث عن النبى صلى الله عليه وسلم، وما بالعهد من قديم، فكيف بأمة بنى إسرائيل مع طول المدى وقلة الحُفاظ النُقاد فيهم، وشربهم الخمر وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه، وتبديل كتب الله وآياته؟ وإنما أباح الشارع الرواية عنهم فى قوله: "وحدّثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج" فيما قد يُجوزُه العقل، فأما فيما تحيله العقول، ويُحكم فيه بالبطلان، ويغلب على الظنون كذبه، فليس من هذا القبيل. والله أعلم".

كما نلاحظ على ابن كثير أنه يدخل فى المناقشات الفقهية، ويذكر أقوال العلماء وأدلتهم عندما يشرح آية من آيات الأحكام، وإن شئت أن ترى مثلاً لذلك فارجع إليه عند تفسير قوله تعالى فى الآية [١٨٥] من سورة البقرة { ... فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ } .. الآية، فإنه ذكر أربع مسائل تتعلق بهذه الآية، وذكر أقوال العلماء فيها، وأدلتهم على ما ذهبوا إليه، وارجع إليه عند تفسير قوله تعالى فى الآية [٢٣٠] من سورة البقرة أيضاً: {فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ} .. الآية، فإنه قد تعرّض لما يُشترط فى نكاح الزوج المحلل، وذكر أقوال العلماء وأدلتهم. وهكذا يدخل ابن كثير فى خلافت الفقهاء، ويخوض فى مذاهبهم وأدلتهم كلما تكلم عن آية لها تعلق بالأحكام، ولكنه مع هذا مقتصد مُقلّ لا يُسرف كما أسرف غيره من فقهاء المفسرين

وبالجملة.. فإن هذا التفسير من خير كتب التفسير بالمأثور، وقد شهد له بعض العلماء فقال السيوطى فى ذيل "تذكرة الحُفاظ" والزرقاتى فى "شرح المواهب": إنه لم يُؤف على نمطه مثله.

التفسير بالرأى معنى التفسير بالرأى:

يُطلق الرأى على الاعتقاد، وعلى الاجتهاد، وعلى القياس، ومنه: أصحاب الرأى: أى أصحاب القياس. والمراد بالرأى هنا "الاجتهاد" وعليه فالتفسير بالرأى، عبارة عن تفسير القرآن بالاجتهاد بعد معرفة المفسر لكلام العرب ومناحيهم فى القول، ومعرفته للألفاظ العربية ووجوه دلالاتها، واستعانتة فى ذلك بالشعر الجاهلى ووقوفه على أسباب النزول، ومعرفته بالناسخ والمنسوخ من آيات القرآن، وغير ذلك من الأدوات التى يحتاج إليها المفسر، وسنذكرها قريباً إن شاء الله تعالى.

* موقف العلماء من التفسير بالرأى:

اختلف العلماء من قديم الزمان فى جواز تفسير القرآن بالرأى، ووقف المفسرون بإزاء هذا الموضوع موقفين متعارضين:

فقوم تشددوا فى ذلك فلم يجرءوا على تفسير شئ من القرآن، ولم يبيحوه لغيرهم، وقالوا: لا يجوز لأحد تفسير شئ من القرآن وإن كان عالماً أديباً متسعاً فى معرفة الأدلة، والفقه، والنحو، والأخبار، والآثار، وإنما له أن ينتهى إلى ما روى النبى صلى الله عليه وسلم، وعن الذين شهدوا التنزيل من الصحابة رضى الله عنهم، أو عن الذين أخذوا عنهم من التابعين.

والفريقان على طرفى نقيض فيما يبدو، وكل يُعزّز رأيه ويُقوّيه بالأدلة والبراهين. أما الفريق الأول - فريق المانعين - قد استدّلوا بما يأتى:

أولاً - قالوا: إن التفسير بالرأى قول على الله بغير علم، والقول على الله بغير علم منهى عنه فالتفسير بالرأى منهى عنه، دليل الصغرى: أن المفسر بالرأى ليس على يقين بأنه أصاب ما أراد الله تعالى، ولا يمكنه أن يقطع بما يقول، وغاية الأمر أنه يقول بالظن، والقول بالظن قول على الله بغير علم.

دليل الكبرى: قوله تعالى: {وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} وهو معطوف على ما قبله من المحرّمات فى قوله تعالى فى الآية [٣٣] من سورة الأعراف: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ} .. الآية، وقوله تعالى فى الآية [٣٦] من سورة الإسراء: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ} ..

وقوم كان موقفهم على العكس من ذلك، فلم يروا بأساً من أن يفسروا القرآن باجتهادهم، ورأوا أن من كان ذا أدب وسيع فموسّع له أن يُفسّر القرآن برأيه واجتهاده.

ومن قال فى القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار" .. قال أبو عيسى: ثانياً - استدّلوا بقوله تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ} ، فقد أضاف البيان إليه، فعلم أنه ليس لغيره شئ من البيان لمعانى القرآن.

وأجاب المجيزون عن هذا الدليل فقالوا: نعم إن النبى صلى الله عليه وسلم مأمور بالبيان ولكنه مات ولم يبيّن كل شئ فما ورد بيانه عنه - صلى الله عليه وسلم - ففيه الكفاية عن فكره من بعده، وما لم يرد عنه ففيه حينئذ فكرة أهل العلم بعده، فيستدلون بما ورد بيانه على ما لم يرد، والله تعالى يقول فى آخر الآية: {وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} .

ثالثاً - استدّلوا بما ورد فى السنّة من تحريم القول فى القرآن بالرأى فمن ذلك:

١ - ما رواه الترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: "اتقوا الحديث عنى إلا ما علمتم، فمن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار هذا حديث حسن.

٢ - ما رواه الترمذى وأبو داود عن جندب أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من قال فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ". وأجاب المجيزون عن هذين الحديثين بأجوبة:

منها: أن النهى محمول على من قال برأيه فى نحو مشكل القرآن، ومشتابهه، من كل ما لم يُعلم إلا عن طريق النقل عن النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة عليهم رضوان الله.

ومنها: أنه أراد - بالرأى - الرأى الذى يغلب على صاحبه من غير دليل يقوم عليه، أما الذى يشده البرهان، ويشهد له الدليل، فالقول به جائز، فالنهي على هذا متناول لمن كان يعرف الحق ولكنه له فى الشئ رأى وميل إليه من طبعه وهواه، فيتأول القرآن على وفق هواه، ليحتج به على تصحيح رأيه الذى يميل إليه، ولو لم يكن له ذلك الرأى والهوى لما لاح له هذا المعنى الذى حمل القرآن عليه. ومتناول لمن كان جاهلاً بالحق ولكنه يحمل الآية التى تحتل أكثر من وجه على ما يوافق رأيه وهواه، ويُرَجِّح هذا الرأى بما يتناسب مع ميوله، ولولا هذا لما تَرَجَّحَ عنده ذلك الوجه. ومتناول أيضاً لمن كان له غرض صحيح ولكنه يستدل لغرضه هذا بدليل قرآنى يعلم أنه ليس مقصوداً به ما أراد، مثل الداعى إلى مجاهدة النفس الذى يستدل على ذلك بقوله تعالى: {اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى}، [طه: ٢٤] ويريد من فرعون النفس.. ولا شك أن مثل هذا قائل فى القرآن برأيه.

ومنها: أن النهى محمول على مَنْ يقول فى القرآن بظاهر العربية، ومن غير أن يرجع إلى أخبار الصحابة الذى شاهدوا تنزيله، وأدوا إلينا من السنن ما يكون بياناً لكتاب الله تعالى، وبدون أن يرجع إلى السماع والنقل فيما يتعلق بغريب القرآن، وما فيه من المبهمات. والحذف، والاختصار، والإضمار، والتقديم، والتأخير، ومراعاة مقتضى الحال، ومعرفة الناسخ والمنسوخ، وما إلى ذلك من كل ما يجب معرفته لمن يتكلم فى التفسير، فإنَّ النظر إلى ظاهر العربية وحده لا يكفى، بل لا بد من ذلك أولاً، ثم بعد ذلك يكون التوسع فى الفهم والاستنباط.

فمثلاً قوله تعالى: {وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا} [الإسراء: ٥٩] معناه: وأتينا ثمود الناقة معجزة واضحة، وآية بيّنة على صدق رسالته، فظلموا بعقرها أنفسهم، ولكن الواقف عن ظاهر العربية وحدها بدون أن يستظهر بشئ مما تقدّم، يظن أن "مبصرة" من الإبصار بالعين، وهو حال من الناقة، وصف لها فى معنى، ولا يدري بعد ذلك بِمَ ظلموا، ولا مَنْ ظلموا.

رابعاً - ما ورد عن السلف من الصحابة والتابعين، من الآثار التى تدل على أنهم كانوا يُعظّمون تفسير القرآن ويتحرّجون من القول فيه بأرائهم.

فمن ذلك: ما جاء عن أبى مُليكة أنه قال: سئل أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى تفسير حرف من القرآن فقال: "أى سماء تظلنى، وأى أرض تقلنى، وأين أذهب، وكيف أصنع إذا قلت فى حرف من كتاب الله بغير ما أراد تبارك وتعالى؟" وما ورد عن سعيد بن المسيب: أنه كان إذا سُئل عن الحلال والحرام تكلم، وإذا سُئل عن تفسير آية من القرآن سكت كأن لم يسمع شيئاً.

وما روى عن الشعبي أنه قال: "ثلاث لا أقول فيهن حتى أموت: القرآن، والروح، والرأى".

وهذا ابن مجاهد يقول: "قال رجل لأبى: أنت الذى تُفسّر القرآن برأيك؟ فبكى أبى، ثم قال: إني إذن لجرى، لقد حملتُ التفسير عن بضعة عشر رجلاً من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم".

.. وغير هذا كثير من الآثار الدالة على المنع من القول فى التفسير بالرأى.

وقد أجاب المجيزون عن هذه الآثار: بأن إجماع مَنْ أحجم من السلف عن التفسير بالرأى، إنما كان منهم ورعاً واحتياطاً لأنفسهم، مخافة ألا يبلغوا ما كُفِّوا به من إصابة الحق فى القول، وكانوا يرون أن التفسير شهادة على الله بأنه عني باللفظ كذا وكذا، فأمسكوا عنه خشية أن لا يوافقوا مراد الله عزَّ وجلَّ، وأما الفريق الثانى - فريق المجوزين - فقد استدلوا على ما ذهبوا إليه بما يأتى:

أولاً - بنصوص كثيرة وردت فى كتاب الله تعالى: منها قوله تعالى: {أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ} القرآن أم على قلوبٍ أفعالها.. [محمد: ٢٤] وقوله: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ} [ص: ٢٩] .. وقوله: {وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ} [النساء: ٨٣] ، ووجه الدلالة فى هذه الآيات: أنه تعالى حثَّ فى الآيتين الأوليين على تدبر القرآن والاعتبار بآياته، والاتعاظ بعظاته، كما دلَّت الآية الأخيرة على أن فى القرآن ما

يستنبطه أولوا الألباب باجتهادهم، ويصلون إليه بإعمال عقولهم، وإذا كان الله قد حثنا على التدبر، وتعبّدنا بالنظر فى القرآن واستنباط الأحكام منه، فهل يُعقل أن يكون تأويل ما لم يستأثر الله بعلمه محظوراً على العلماء.

ثانياً - قالوا: لو كان التفسير بالرأى غير جائز لما كان الاجتهاد جائزاً، ولتعطل كثير من الأحكام، وهذا باطل بيّن البطلان، وذلك لأن باب الاجتهاد لا يزال مفتوحاً إلى اليوم أمام أربابه، والمجتهد فى حكم الشرع مأجور، أصاب أو أخطأ، والنبي صلى الله عليه وسلم لم يُفسّر كل آيات القرآن، ولم يستخرج لنا جميع ما فيه من أحكام.

ثالثاً - استدلوا بما ثبت من أن الصحابة - رضوان الله عليهم - قرأوا القرآن واختلفوا فى تفسيره على وجوه، ومعلوم أنهم لم يسمعوا كل ما قالوه فى تفسير القرآن من النبي صلى الله عليه وسلم، إذ أنه لم يبيّن لهم كل معانى القرآن، بل بيّن لهم بعض معانيه، وبعضه الآخر توّصّلوا إلى معرفته بعقولهم واجتهادهم، ولو كان القول بالرأى فى القرآن محظوراً لكانت الصحابة قد خالفت ووقعت فيما حرّم الله، ونحن نُعيذ الصحابة من المخالفة والجرأة على محارم الله.

رابعاً- قالوا: إنّ النبي صلى الله عليه وسلم دعا لابن عباس رضى الله عنهما، فقال فى دعائه له: "اللهم فقهه فى الدين، وعلمه التأويل" فلو كان التأويل مقصوراً على السماع والنقل كالتنزيل، لما كان هناك فائدة لتخصيص ابن عباس بهذا الدعاء، فدلّ ذلك على أن التأويل الذى دعا به الرسول صلى الله عليه وسلم لابن عباس أمر آخر وراء النقل والسماع، ذلك هو التفسير بالرأى والاجتهاد، وهذا بيّن لا إشكال فيه.

الأمر الذى يجب على المفسّر أن يتجنبها فى تفسيره:

هناك أمور يجب على المفسّر أن يتجنبها فى تفسيره حتى لا يقع فى الخطأ ويكون ممن قال فى القرآن برأيه الفاسد، وهذه الأمور هى ما يأتى:

أولاً: التهجم على بيان مراد الله تعالى من كلامه مع الجهالة بقوانين اللغة وأصول الشريعة، وبدون أن يُحصّل العلوم التى يجوز معها التفسير.

ثانياً: الخوض فيما استأثر الله بعلمه، وذلك كالمتشابه الذى لا يعلمه إلا الله. فليس للمفسّر أن يتهجم على الغيب بعد أن جعله الله تعالى سراً من أسرارهِ وحجبه عن عباده.

ثالثاً: السير مع الهوى والاستحسان، فلا يُفسّر بهواه ولا يُرَجِّح باستحسانه.

رابعاً: التفسير المقرر للمذهب الفاسد، بأن يجعل المذهب أصلاً والتفسير تابعاً، فيحتال فى التأويل حتى يصرّفه إلى عقيدته، ويرده إلى مذهبه بأى طريق أمكن، وإن كان غاية فى البُعد والغزابة أن يتهجم على الغيب بعد أن جعله الله تعالى سراً من أسرارهِ وحجبه عن عباده. ثالثاً: السير مع الهوى والاستحسان، فلا يُفسّر بهواه ولا يُرَجِّح باستحسانه.

خامساً: التفسير مع القطع بأن مراد الله كذا وكذا من غير دليل، وهذا منهى عنه شرعاً، لقوله تعالى فى الآية [١٦٩] من سورة البقرة: {وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} .

منشأ الخطأ فى التفسير بالرأى:

يقع الخطأ كثيراً فى التفسير من بعض المتصدرين للتفسير بالرأى، الذين عدلوا عن مذاهب الصحابة والتابعين، وفسّروا بمجرد الرأى والهوى، غير مستندين إلى تلك الأصول التى قدّمنا أنها أول شئ يجب على المفسّر أن يعتمد عليه. ولا متدرعين بتلك العلوم التى هى فى الواقع أدوات لفهم كتاب الله والكشف عن أسرارهِ ومعانيهِ.

يرجع الخطأ فى التفسير بالرأى - غالباً - إلى جهتين حدثتا بعد تفسير الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان،

أما هاتان الجهتان اللتان يرجع إليهما الخطأ فى الغالب فهما ما يأتى:

الجهة الأولى: أن يعتقد المفسّر معنى من المعانى، ثم يريد أن يحمل ألفاظ القرآن على ذلك المعنى الذى يعتقدهِ.

الجهة الثانية: أن يفسر القرآن بمجرد ما يسوغ أن يريده بكلامه مَنْ كان مِنَ الناطقين بلغة العرب. وذلك بدون نظر إلى المتكلم بالقرآن، والمنزل عليه، والمخاطب به.

فالجهة الأولى: مراعى فيها المعنى الذى يعتقده المفسر من غير نظر إلى ما تستحقه ألفاظ القرآن من الدلالة والبيان.

والجهة الثانية: مراعى فيها مجرد اللفظ وما يجوز أن يريد به العربى، من غير نظر إلى ما يصلح للمتكلم به والمخاطب، وسياق الكلام.

ثم إن الخطأ الذى يرجع إلى الجهة الأولى يقع على أربع صور:

الصورة الأولى: أن يكون المعنى الذى يريد المفسر نفيه أو إثباته صواباً، فمراعاة لهذا المعنى يحمل عليه لفظ القرآن، مع أنه لا يدل عليه ولا يُراد منه، وهو مع ذلك لا ينفى المعنى الظاهر المراد، وعلى هذا يكون الخطأ واقعاً فى الدليل لا فى المدلول، وهذه الصورة تنطبق على كثير من تفاسير الصوفية والوعاظ الذين يفسرون القرآن بمعان صحيحة فى ذاتها ولكنها غير مرادة، ومع ذلك فهم يقولون بظاهر المعنى، وذلك مثل كثير مما ذكره أبو عبد الرحمن السلمى فى حقائق التفسير، فمثلاً عندما عرض لقوله تعالى فى الآية [٦٦] من سورة النساء: {وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ ائْتُوا مِنْ دِيَارِكُمْ ...} الآية، نجده يقول ما نصه: {اقتلوا أنفسكم} بمخالفة هواها، {أو اخرجوا من دياركم}، أي اخرجوا حب الدنيا من قلوبكم.. إلخ

الصورة الثانية: أن يكون المعنى الذى يريد المفسر نفيه أو إثباته صواباً، فمراعاة لهذا المعنى يسلب لفظ القرآن ما يدل عليه ويُراد به. ويحمله على ما يريده هو، وعلى

ذا يكون الخطأ واقعاً فى الدليل لا فى المدلول أيضاً، وهذه الصورة تنطبق على تفاسير بعض المتصوفة الذين يفسرون القرآن بمعان إشارية صحيحة فى حد ذاتها، ومع ذلك فإنهم يقولون: إن المعانى الظاهرة غير مرادة، وتفسير هؤلاء أقرب ما يكون إلى تفسير الباطنية، ومن ذلك ما فسّر به سهل التستري قوله تعالى فى الآية [٣٥] من سورة البقرة: {وَلَا تَقْرَبُوا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونُوا مِنَ الظَّالِمِينَ} .. حيث يقول ما نصه: لم يرد الله معنى الأكل فى الحقيقة، وإنما أراد معنى مساكنة الهمة لشيء هو غيره ... إلخ.

الصورة الثالثة: أن يكون المعنى الذى يريد المفسر نفيه أو إثباته خطأ، فمراعاة لهذا المعنى يحمل عليه لفظ القرآن، مع أنه لا يدل عليه ولا يُراد منه، وهو مع ذلك لا ينفى الظاهر المراد، وعلى هذا يكون الخطأ واقعاً فى الدليل والمدلول معاً، وهذه الصورة تنطبق على ما ذكره بعض المتصوفة من المعانى الباطلة، وذلك كالتفسير المبني على القول بوحدة الوجود، كما جاء فى التفسير المنسوب لابن عربى عندما عرض لقوله تعالى فى الآية [٨] من سورة المزمل: {وَإِذْ نَادَى اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً} .. من قوله فى تفسيرها: واذكر اسم ربك الذى هو أنت، أى اعرف نفسك ولا تنسها فينسك الله ... إلخ.

الصورة الرابعة: أن يكون المعنى الذى يريد المفسر نفيه أو إثباته خطأ، فمراعاة لهذا المعنى يسلب لفظ القرآن ما يدل عليه ويُراد به، ويحمله على ذلك الخطأ دون الظاهر المراد، وعلى هذا يكون الخطأ فى الدليل والمدلول معاً، وهذه الصورة تنطبق على تفاسير أهل البدع، والمذاهب الباطلة، فتارة يلوون لفظ القرآن عن ظاهره المراد إلى معنى ليس فى اللفظ أى دلالة عليه، كتفسير بعض غلاة الشيعة: "الجبت والطاغوت" بأبى بكر وعمر، وتارة يحتالون على صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى فيه تكلف غير مقبول، وذلك إذا أحسوا أن اللفظ

القرآنى يصادم مذهبهم الباطل، كما فعل بعض المعتزلة ففسر لفظ "إلى" فى قوله تعالى فى الآيتين [٢٢، ٢٣] من سورة القيامة: {وَجُودُهُ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ} بالنعمة، ذهباً منهم إلى أن "إلى" واحد الآلاء، بمعنى النعم، فيكون المعنى: ناظرة نعمة ربها، على التقديم والتأخير، وذلك كله ليصرف الآية عما تدل عليه من رؤية الله فى الآخرة.

وأما الخطأ الذى يرجع إلى الجهة الثانية فهو يقع على صورتين:

الصورة الأولى: أن يكون اللفظ محتملاً للمعنى الذي ذكره المفسر لغة، ولكنه غير مراد، وذلك كاللفظ الذي يُطلق في اللغة على معنيين أو أكثر. والمراد منه واحد بعينه، فيأتي المفسر فيحمله على معنى آخر من معانيه غير المعنى المراد، وذلك كلفظ "أمة" فإنه يُطلق على معان، منها: الجماعة، والطريقة المسلوكة في الدين، والرجل الجامع لصفات الخير، فحمله على غير معنى الطريقة المسلوكة في الدين في قوله تعالى في الآية [٢٢] من سورة الزخرف: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ غير صحيح وإن احتمله اللفظ لغة.

الصورة الثانية: أن يكون اللفظ موضوعاً لمعنى بعينه، ولكنه

يرُراد في الآية، وإنما المراد معنى آخر غير ما وضع له اللفظ بقريضة السياق مثلاً، فيخطئ المفسر في تعيين المعنى المراد، لأنه اكتفى بظاهر اللغة، فشرح اللفظ على معناه الوضعي، وذلك كتفسير لفظ "مبصرة" في قوله تعالى في الآية [٥٩] من سورة الإسراء: ﴿وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ بجعل "مبصرة" من الإبصار بالعين، على أنها حال من الناقة، وهذا خلاف المراد، إذ المراد: آية واضحة.

المحاضرة الثالثة عشر

أشهر مادون في التفسير بالرأى

أهم كتب التفسير بالرأى الجائز

- مفاتيح الغيب: للفخر الرازى

٢ - أنوار التنزيل وأسرار التأويل: للبيضاوى

٣ - مدارك التنزيل وحقائق التأويل: للنسفى

٤ - أبواب التأويل فى معانى التنزيل: للخازن

٥ - البحر المحيط: لأبى حيان

٦ - غرائب القرآن ورغائب الفرقان: للنيسابورى

٧ - تفسير الجلالين: للجلال المحلى، والجلال السيوطى

٨ - السراج المنير فى الإعانة على معرفة بعض معانى كلام ربنا الحكيم الخبير: للخطيب الشربينى

٩ - إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: لأبى السعود

١٠ - روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى: للألوسى

مفاتيح الغيب (للرازى)

* التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير، هو أبو عبد الله، محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن ابن على، التميمى، البكرى، الطبرستانى، الرازى، الملقب بفخر الدين، والمعروف بابن الخطيب الشافعى، المولود سنة ٥٤٤ هـ (أربع وأربعين وخمسمائة من الهجرة). كان رحمه الله فريده عصره، ومتكلم زمانه، جمع كثيراً من العلوم ونبغ فيها، فكان إماماً فى التفسير والكلام، والعلوم العقلية، وعلوم اللغة، ولقد أكسبه نبوغه العلمى شهرة عظيمة، فكان العلماء يقصدونه من البلاد، ويشدون إليه الرحال من مختلف الأقطار، وقد أخذ العلم عن والده ضياء الدين المعروف بخطيب الرى، وعن الكمال السمعانى، والمجد الجيلى، وكثير من العلماء الذين عاصروهم ولقيهم، وله فوق شهرته العلمية شهرة كبيرة فى الوعظ، حتى قيل إنه كان يعظ باللسان العربى واللسان العجمى، وكان يلحقه الوجد فى حال الوعظ ويكثر البكاء، ولقد خلف - رحمه الله - للناس مجموعة كبيرة من تصانيفه فى الفنون المختلفة، وقد انتشرت هذه التصانيف فى البلاد، ورزق فيها الحظوة الواسعة، والسعادة العظيمة، إذ أن الناس اشتغلوا بها، وأعرضوا عن كتب المتقدمين. ومن أهم هذه المصنفات: تفسيره الكبير المسمى بمفاتيح الغيب، وهو ما نحن بصده الآن، وله تفسير سورة الفاتحة فى مجلد واحد، ولعله هو الموجود بأول تفسيره "مفاتيح الغيب"، وله فى علم الكلام: المطالب العالية، وكتاب البيان والبرهان فى الرد على أهل الزيغ والطغيان.

وله فى أصول الفقه: المحصول، وفى الحكمة: المخلص، وشرح الإشارات لابن سينا، وشرح عيون الحكمة، وفى الطلمسات: السر المكنون، ويقال: إنه شرح المفصل فى النحول لمخبرى، وشرح الوجيز فى الفقه للغزالى.. وغير هذا كثير من مصنفاته، التى يتجلى فيها علم الرجل الواسع الغزير.

هذا.. وقد كانت وفاة الرازى - رحمه الله - سنة ٦٠٦ هـ (ست وستمائة من

لهجرة) بالرى، ويقال فى سبب وفاته: أنه كان بينه وبين الكرامة خلاف كبير وجدل فى أمور العقيدة، فكان ينال منهم وينالون منه سباً وتكفيراً، وأخيراً سمّوه فمات على إثر ذلك واستراحوا منه.

* التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

يقع هذا التفسير فى ثمانى مجلدات كبار، وهو مطبوع ومتداول بين أهل العلم، ويقول ابن قاضى شُهبة: إنه - أى الفخر الرازى - لم يتمه، كما يقول ذلك ابن خلكان فى وفيات الأعيان، إذن فمن الذى أكمل هذا التفسير؟ وإلى أى موضع من القرآن وصل الفخر الرازى فى تفسيره؟

الحق أن هذه مشكلة لم نوفق إلى حلها حلاً حاسماً، لتضارب أقوال العلماء فى هذا الموضوع، فابن حجر العسقلانى، فى كتابه الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، يقول: "الذى أكمل تفسير فخر الدين الرازى، هو أحمد بن محمد بن أبى الحزم مكى نجم الدين المخزومى القمولى، مات سنة ٧٢٧ هـ (سبع وعشرين وسبعمئة من الهجرة) هو مصرى".

وصاحب كشف الظنون يقول: "وصنّف الشيخ نجم الدين أحمد ابن محمد القمولى تكملة له، وتوفى سنة ٧٢٧ هـ (سبع وعشرين وسبعمئة من الهجرة)، وقاضى القضاة شهاب الدين بن خليل الخويى الدمشقى، كمل ما نقص منه أيضاً، وتوفى سنة ٦٣٩ هـ (تسع وثلاثين وستمئة)". الحق أن هذه مشكلة لم نوفق إلى حلها حلاً حاسماً، لتضارب أقوال العلماء فى هذا الموضوع، فابن حجر العسقلانى، فى كتابه الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، يقول: "الذى أكمل تفسير فخر الدين الرازى، هو أحمد بن محمد بن أبى الحزم مكى نجم الدين المخزومى القمولى، مات سنة ٧٢٧ هـ (سبع وعشرين وسبعمئة من الهجرة) هو مصرى".

وصاحب كشف الظنون يقول: "وصنّف الشيخ نجم الدين أحمد ابن محمد القمولى تكملة له، وتوفى سنة ٧٢٧ هـ (سبع وعشرين وسبعمئة من الهجرة)، وقاضى القضاة شهاب الدين بن خليل الخويى الدمشقى، كمل ما نقص منه أيضاً، وتوفى سنة ٦٣٩ هـ (تسع وثلاثين وستمئة)".

فأنت ترى أن ابن حجر يذكر أن الذى أتم تفسير الفخر هو نجم الدين القمولى، وصاحب كشف الظنون يجعل لشهاب الدين الخويى مشاركة على وجه ما فى هذه التكملة، وإن كانا يتفقان على أن الرازى لم يتم تفسيره.

وأما إلى أى موضع وصل الفخر فى تفسيره؟ فهذه كالأولى أيضاً، وذلك لأننا وجدنا على هامش كشف الظنون ما نصه: "الذى رأيت بخط السيد مرتضى نقلاً عن شرح الشفا للشهاب، أنه وصل فيه إلى سورة الأنبياء".

وقد وجدت فى أثناء قراءتى فى هذا التفسير عند قوله تعالى فى الآية [٢٤] من سورة الواقعة: {جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} هذه العبارة: "المسألة الأولى أصولية، ذكرها لإمام فخر الدين رحمه الله فى مواضع كثيرة، ونحن نذكر بعضها.. الخ".

وهذه العبارة تدل على أن الإمام فخر الدين، لم يصل فى تفسيره إلى هذه السورة.

كما وجدت عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية [٦] من سورة المائدة {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ} .. الآية، أنه تعرّض لموضوع النية فى الوضوء. واستشهد على اشتراط النية فيه بقوله تعالى فى الآية [٥] من سورة البينة: {وَمَا أَمَرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} .. ويبيّن أن الإخلاص عبارة عن النية، ثم قال: "وقد حققنا الكلام فى هذا الدليل فى تفسير قوله تعالى: {وَمَا أَمَرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} فليرجع إليه فى طلب زيادة الإتيان". وهذه العبارة تُشعر بأن الفخر الرازى فسّر سورة البينة، أى أنه وصل إليها فى تفسيره، طبعاً بحسب ظاهر العبارة المجرد عن كل شئ.

والذى أستطيع أن أقوله كحل لهذا الاضطراب: هو أن الإمام فخر الدين، كتب تفسيره هذا إلى سورة الأنبياء، فأتى بعده شهاب الدين الخويى، فشرع فى تكملة هذا التفسير ولكنه لم يتمه، فأتى بعده نجم الدين القمولى فأكمل ما بقى منه. كما يجوز أن يكون الخويى أكمله إلى النهاية، والقمولى كتب تكملة أخرى غير التى كتبها الخويى، وهذا هو الظاهر من عبارة صاحب كشف الظنون.

وأما إحالة الفخر على ما كتبه في سورة البيّنة، فهذا ليس بصريح في أنه وصل إليها في تفسيره، إذ لعله كتب تفسيراً مستقلاً لسورة البيّنة، أو لهذه الآية وحدها، فهو يشير إلى ما كتب فيها ويحيل عليه أقول هذا، وأعتقد أنه ليس حلاً حاسماً لهذا الاضطراب، وإنما هو توفيق يقول على الظن يُخطئ ويُصيب.

ثم إن القارئ في هذا التفسير، لا يكاد يلحظ فيه تفاوتاً في المنهج والمسلك، بل يجرى الكتاب من أوله إلى آخره على نمط واحد، وطريقة واحدة، تجعل الناظر فيه لا يستطيع أن يُميّز بين الأصل والتكملة، ولا يتمكن من الوقوف على حقيقة المقدار الذي كتبه الفخر، والمقدار الذي كتبه صاحب التكملة.

هذا.. وإن تفسير الفخر الرازي ليحظى بشهرة واسعة بين العلماء، وذلك لأنه يمتاز عن غيره من كتب التفسير، بالأبحاث الفياضة الواسعة، في نواح شتى من العلم،

لهذا يصفه ابن خلكان فيقول: "إنه - أي الفخر الرازي - جمع فيه كل غريب وغريبة".

اهتمام الفخر الرازي ببيان المناسبات بين آيات القرآن وسوره:

وقد قرأت في هذا التفسير، فوجدت أنه يمتاز بذكر المناسبات بين الآيات بعضها مع بعض، وبين السور بعضها مع بعض، وهو لا يكتفى بذكر مناسبة واحدة بل كثيراً ما يذكر أكثر من مناسبة.

* اهتمامه بالعلوم الرياضية والفلسفية:

كما أنه يُكثر من الاستطراد إلى العلوم الرياضية والطبيعية، وغيرها من العلوم الحادثة في الملة، على ما كانت عليه في عهده، كالهَيْئَةُ الفلكية وغيرها، كما أنه يعرض كثيراً لأقوال الفلاسفة بالرد والتفنيد، وإن كان يصوغ أدلته في مباحث الإلهيات على نمط استدلالاته العقلية، ولكن بما يتفق ومذهب أهل السُنَّة

موقفه من المعتزلة:

ثم إنه - كسُنِّي يرى ما يراه أهل السُنَّة، ويعتقد بكل ما يقررونه من مسائل علم الكلام - لا يدع فرصة تمر دون أن يعرض لمذهب المعتزلة بذكر أقوالهم والرد عليهم، رداً لا يراه البعض كافياً ولا شافياً.

فهذا هو الحافظ ابن حجر يقول عنه في لسان الميزان: "وكان يُعاب بإيراد الشبهة الشديدة، ويُقصر في حلها، حتى قال بعض المغاربة: "يُورد الشبهة نقداً ويحلها نسيئة".

وقال ابن حجر أيضاً في لسان الميزان: "ورأيت في الإكسير في علم التفسير للنجم الطوفي ما ملخصه: ما رأيت في التفاسير أجمع لغالب علم التفسير من القرطبي، ومن تفسير الإمام فخر الدين، إلا أنه كثير العيوب، فحدّثني شرف الدين النصيبي، عن شيخه سراج الدين السرمياحي المغربي، أنه صنّف كتاب المأخذ في مجلدين، بيّن فيهما في تفسير الفخر من الزيف والبهرج، وكان ينقم عليه كثيراً

ويقول: يورد شبه المخالفين في المذهب والدين على غاية ما يكون من التحقيق، ثم يورد مذهب أهل السُنَّة والحق على غاية من الوهاء. قال الطوفي: ولعمري، إن هذا دأبه في كتبه الكلامية والحكمة. حتى اتهمه بعض الناس، ولكنه خلاف ظاهر حاله، لأنه لو كان اختار قولاً أو مذهباً ما كان عنده من يخاف منه حتى يستر عنه، ولعل سببه أنه كان يستفرغ أقالماً في تقرير دليل الخصم، فإذا انتهى إلى تقرير دليل نفسه لا يبقى عنده

شئ من القوى، ولا شك أن القوى النفسانية تابعة للقوى البدنية، وقد صرّح في مقدمة نهاية العقول: أنه مقرر مذهب خصمه تقريراً لو أراد خصمه تقريره لم يقدر على الزيادة على ذلك".

* موقفه من علوم الفقه والأصول والنحو والبلاغة:

ثم إن الفخر الرازي لا يكاد يمر بآية من آيات الأحكام إلا ويذكر مذاهب الفقهاء فيها، مع ترويجه لمذهب الشافعي - الذي يُقَلِّدُه - بالأدلة والبراهين.

كذلك نجده يستطرد لذكر المسائل الأصولية، والمسائل النحوية، والبلاغية، وإن كان لا يتوسع في ذلك توسعه في مسائل العلوم الكونية والرياضية.

ومن أجل ذلك قال صاحب كشف الظنون: "إن الإمام فخر الدين الرازي ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة، وخرج من شئ إلى شئ، حتى يقضى الناظر العجب" ونقل عن أبي حيان أنه قال في البحر المحيط: "جمع الإمام الرازي في تفسيره أشياء كثيرة طويلة لا حاجة بها في علم التفسير، ولذلك قال بعض العلماء: فيه كل شئ إلا التفسير".

ويظهر لنا أن الإمام فخر الدين الرازي كان مولعاً بكثرة الاستنباطات والاستطرادات في تفسيره، ما دام يستطيع أن يجد صلة ما بين المستنبط أو المستطرد إليه وبين اللفظ القرآني، والذي يقرأ مقدمة تفسيره لا يسعه إلا أن يحكم على الفخر هذا الحكم، وذلك حيث يقول: "اعلم أنه مرَّ على لساني في بعض الأوقات، أن هذه السورة الكريمة - يريد الفاتحة - يمكن أن يُستنبط من فوائدها ونفائسها عشرة آلاف مسألة، فاستبعد هذا بعض الحُساد، وقوم من أهل الجهل والغى والعناد، وحملوا ذلك على ما ألفوه من أنفسهم من التعلقات الفارغة عن المعاني، والكلمات الخالية عن تحقيق المعاهد والمباني، فلما شرعتُ في تصنيف هذا الكتاب، قدَّمتُ هذه المقدمة، لتصير كالتنبيه على أن ما ذكرناه أمر ممكن الحصول، قريب الوصول" ... إلخ.

وبعد.. فالكتاب بين يديك، فأجلْ نظرك في جميع نواحيه، فسوف لا ترى إلا ما قلته فيه، وما حكمتُ به عليه.

وبالجملة.. فالكتاب أشبه ما يكون بموسوعة في علم الكلام، وفي علوم الكون والطبيعة، إذ أن هذه الناحية، هي التي غلبت عليه حتى كادت تُقلِّل من أهمية الكتاب كتفسير للقرآن الكريم.

مدارك التنزيل وحقائق التأويل (للنسفي)

* التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير، هو أبو البركات، عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي الحنفي، أحد الزُّهاد المتأخرين، والأئمة المعتبرين، كان إماماً كاملاً عديم النظير في زمانه، رأساً في الفقه والأصول، بارعاً في الحديث ومعانيه، بصيراً بكتاب الله تعالى، وهو صاحب التصانيف المفيدة المعتبرة في الفقه والأصول وغيرهما. فمن مؤلفاته: متن الوافي في الفروع، وشرحه الكافي، وكنز الدقائق في الفقه أيضاً، والمنار في أصول الفقه، والعُمدة في أصول الدين، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل، وهو التفسير الذي نحن بصدد الكلام عنه، وغير ذلك من المؤلفات التي تداولها العلماء، وتناولوها دراسة وبحثاً، وليس هذا التراث العلمي بكثير على رجل تفقَّه على كثير من مشايخ عصره وأخذ عنهم، ومن هؤلاء: شمس الأئمة الكردي وعليه تفقَّه، وأحمد بن محمد العنابي الذي روى عنه الزيادات.

وكانت وفاة النسفي - رحمه الله - سنة ٧٠١ هـ (إحدى وسبعمائة من الهجرة) ، ودفن ببلدة أيدج فرضى الله عنه وأرضاه.

* التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

هذا التفسير، اختصره النسفي - رحمه الله - من تفسير البيضاوي ومن الكشاف للزمخشري، غير أنه ترك ما في الكشاف من الاعتزالات، وجرى فيه على مذهب أهل السنَّة والجماعة، وهو تفسير وسيط بين الطول والقصر، جمع فيه صاحبه بين وجوه الإعراب والقراءات، وضمنه ما اشتمل عليه الكشاف من النكت البلاغية، والمحسِّنات البيديعية، والكشف عن المعاني الدقيقة الخفية، وأورد فيه ما أورده الزمخشري في تفسيره من الأسئلة والأجوبة، لكن لا على طريقتيه من قوله: "فإن قيل ... قلت" بل جعل ذلك في الغالب كلاماً مدرجاً في ضمن شرحه للآية، كما أنه لم يقع فيما وقع فيه صاحب الكشاف من ذكره للأحاديث الموضوعية في فضائل السور.

ذا وقد أورد النسفى فى مقدمة تفسيره عبارة قصيرة، أوضح فيها عن طريقته التى سلكها فيه، وأرى أن أسوقها لك بنصها لتمام الفائدة:

قال رحمه الله: "قد سألتنى من تتعين إجابته، كتاباً وسطاً فى التأويلات، جامعاً لوجوه الإعراب والقراءات، متضمناً لدقائق علمى البديع والإشارات، حالياً بأقويل أهل السنّة والجماعة، خالياً عن أباطيل أهل البدع والضلالة، ليس بالطويل الممل، ولا بالقصير المخل، وكنت أقدم فيه رجواؤخر أخرى، استقصاراً لقوة البشر عن درك هذا الوطر، وأخذاً لسبيل الحذر عن ركوب متن الخطر، حتى شرعت فيه بتوفيق الله والعوائق كثيرة، وأتممتها فى مدة يسيرة، وسميتها بمدارك التنزيل وحقائق التأويل".

وقال صاحب كشف الظنون: "اختصره - يعنى تفسير النسفى - الشيخ زين الدين، أبو محمد، عبد الرحمن بن أبى بكر بن العيى، وزاد فيه". ولكن لم يقع فى يدنا هذا المختصر، ولم نظفر به حتى نحكم عليه.

قرأت فى هذا التفسير فوجدته كما قلت أنفاً موجز العبارة سهل المأخذ، مختصراً من تفسير الكشاف، جامعاً لمحاسنه، متحاشياً لمساوئه، ومن تفسير البيضاوى أيضاً حتى إنه ليأخذ عبارته بنصها أو قريباً منه ويضمنها تفسيره خوضه فى المسائل النحوية:

كذلك وجدته - كما يقول صاحبه - جامعاً بين وجوه الإعراب والقراءات، غير أنه من ناحية الإعراب لا يستطرد كثيراً. ولا يزوج بالتفاصيل النحوية فى تفسيره كما يفعل غيره، فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية [٢١٧] من سورة البقرة: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} .. الآية.

يقول ما نصه: "والمسجد الحرام": عطف على "سبيل الله"، أى وَصَدَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَعَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وزعم الفراء أنه معطوف على الهاء فى "به"، أى كفر به وبالمسجد الحرام، ولا يجوز عند البصريين العطف على الضمير المجرور إلا بإعادة الجار،

لا تقول: مررت به وزيد، ولكن تقول: وبزيد، ولو كان معطوفاً على الهاء هنا لقال: وكفر به وبالمسجد الحرام".

وأما من ناحية القراءات فهو ملتزم للقراءات السبع المتواترة مع نسبة كل قراءة إلى قارئها.

* خوضه فى مسائل الفقه:

كذلك عند تفسيره لآية من آيات الأحكام نجده يعرض للمذاهب الفقهية التى لها تعلق وارتباط بالآية، ويوجه الأقوال ولكن بدون توسع.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية [٢٢٢] من سورة البقرة:

{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَاعْتَرَلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ} يقول ما نصه: " ... ثم عند أبى حنيفة وأبى يوسف - رحمهما الله - يجتنب ما اشتمل عليه الإزار. ومحمد - رحمه الله - لا يُوجب إلا اعتزال الفرج، وقالت عائشة رضى الله عنها: يجتنب شعار الدم وله ما سوى ذلك.

{وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ} مجامعين، أو: ولا تقربوا مجامعتهن {حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ} بالتشديد - كوفى غير حفص - أى يغتسلن، وأصله يطهرن فأدغم التاء فى الطاء لقرب مخرجيهما. غيرهم {يَطْهُرْنَ} أى ينقطع دمهن، والقراءتان كآيتين، فعملنا بهما. وقلنا: له أن يقربها فى أكثر الحيض بعد انقطاع الدم وإن لم تغتسل، عملاً بقراءة التخفيف، وفى أقل منه لا يقربها حتى تغتسل أو يمضى عليها وقت الصلاة، عملاً بقراءة التشديد، والحمل على هذا أولى من العكس، لأنه حينئذ يجب ترك العمل قوله تعالى: {فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ} : فجامعوهن، فجمع بينهما .. ".

وهو ينتصر لمذهبه الحنفى ويرد على مَنْ خالفه فى كثير من الأحيان، وإن أردت الوقوف على ذلك فارجع إليه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية [٢٢٨] من سورة البقرة: {والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قرواء} .. (ج ١ ص ٨٩) ؛ وعند

سيره لقوله تعالى فى الآية (٢٣٧) من سورة البقرة: {وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ} .

ج (١ ص ٩٥) وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية [٦] من سورة الطلاق: {أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ} .. الآية، (ج ٤ ص ٢٠١) .

* موقفه من الإسرائيليات:

ومما نلاحظه على هذا التفسير أنه مُقل جداً فى ذكره للإسرائيليات، وما يذكره من ذلك يمر عليه بدون أن يتعقبه أحياناً، وأحياناً يتعقبه ولا يرتضيه.

مثلاً نجده عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية [١٦] من سورة النمل: {وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ} يقول: روى أنه صاحب فاختة فأخبر أنها تقول: ليت ذا الخلق لم يُخلقوا، وصاح طاووس فقال: يقول: كما تدين تدان. وصاح هدهد فقال: يقول: استغفروا الله يا مذنبون. وصاح خطاف فقال: يقول: قَدِّمُوا خيراً تجدوه، وصاحت رخمة فقال: تقول: سبحان ربي الأعلى ملء سمائه وأرضه، وصاح قمرى فأخبر أنه يقول: سبحان ربي الأعلى، وقال: الحدأة تقول: كل شئ هالك إلا الله، والقطاة تقول: مَنْ سكت سلم، والديك يقول: اذكروا الله يا غافلون، والنسر يقول: يا بن آدم، عِشْ ما شئتْ أخرج الموت، والعقاب يقول: فى البُعد عن الناس أنس. والصفدع يقول: سبحان ربي القدوس ثم يتكلم عن قوله تعالى: {وَأُوْتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ} بدون أن يتعقب ما ذكره من ذلك كله.

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية [٣٥] من سورة النمل أيضاً: {وَأِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسِلُونَ} .. نراه يذكر خبر هدية بلقيس لسليمان وما كان من امتحانها له، وهو خبر أشبه ما يكون بقصة نسجها خيال شخص مسرف فى تخيله، ومع ذلك فلا يُعقَّب عليها الإمام النسفى بكلمة واحدة.

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين [٢١] و [٢٢] فى سورة [ص]: {وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكَمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ} .. نراه - بعد أن يذكر من الروايات ما لا يتنافى مع عصمة داود عليه السلام - يقول ما نصه: "وما يُحكى أنه بعث مرة بعد مرة أوريا إلى غزوة البلقاء وأحب أن يُقتل

يتزوجها - يعنى زوجة أوريا - فلا يليق من المتسمين بالصلاح من أفناء الناس، فضلاً عن بعض أعلام الأنبياء، وقال على رضى الله عنه: مَنْ حَدَّثَكُمْ بحديث داود عليه السلام على ما يرويه القصاص، جلدته مائة وستين، وهو حد الفرية على الأنبياء".

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية [٣٤] من سورة [ص] أيضاً: {وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ} .. نراه يذكر من الروايات ما لا يتنافى مع عصمة سليمان عليه السلام، ثم يقول ما نصه: "وأما ما يُروى من حديث الخاتم والشيطان، وعبادة الوثن فى بيت سليمان عليه السلام، فمن أباطيل اليهود فى هذه الآية الأخيرة وما قبلها نجد النسفى - رحمه الله - يتصدى للتنبيه والرد على القصاص المكذوب الذى يتنافى مع عصمة الأنبياء، ولا يتساهل هنا كما تساهل فيما مثلنا به قبل ذلك، ولعله يرى أن كل ما يمس العقيدة من هذا القصاص يجب التنبيه على عدم صحته، وما لا يمس العقيدة فلا مانع من روايته بدون تعقيب عليه، ما دام يحتمل الصدق والكذب فى ذاته، ولا يتنافى مع العقل أو يتصادم مع الشرع. هذا.. وإن الكتاب لمتداول بين أهل العلم، ومطبوع فى أربعة أجزاء متوسطة الحجم، وقد نفع الله به الناس كما نفعهم بغيره من مؤلفات النسفى رحمه الله.

المحاضرة الرابعة عشر

مراجعة عامة

التفسير فى اللغة: التفسير هو الإيضاح والتبيين، ومنه قوله تعالى فى سورة الفرقان آية [٣٣]: {وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا} .. أى بياناً وتفصيلاً، وهو مأخوذ من الفسر وهو الإبانة والكشف، قال فى القاموس: "الفسر: الإبانة وكشف المغطى كالتفسير، والفعل: كضرب ونصر".

وقال فى لسان العرب: "الفسر: البيان فسّر الشيء يُفسّره - بالكسر ويُفسّره - بالضم فسراً. وفسّره أبانه. والتفسير مثله ... ثم قال: الفسر كشف المغطى، والتفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل ... "

وقال أبو حيان فى البحر المحيط: " ... ويُطلق التفسير أيضاً على التعرية للانطلاق، قال ثعلب: تقول: فسرتُ الفرس: عرّيته لينطلق فى حصره، وهو راجع لمعنى الكشف، فكأنه كشف ظهره لهذا الذى يريده منه من الجرى".

ومن هذا يتبين لنا أن التفسير يُستعمل لغة فى الكشف الحسى، وفى الكشف عن المعانى المعقولة، واستعماله فى الثانى أكثر من استعماله فى الأول.

الملكات الناشئة من مزاولة القواعد، فيتكلف له التعريف، فيذكر فى ذلك علوماً أخرى يُحتاج إليها فى فهم القرآن، كاللغة، والصرف، والنحو، والقراءات ... وغير ذلك.

وإذا نحن تتبعنا أقوال العلماء الذين تكلفوا الحد للتفسير، وجدناهم قد عرّفوه بتعاريف كثيرة، يمكن إرجاعها كلها إلى واحد منها، فهى وإن كانت مختلفة من جهة اللفظ، إلا أنها متحدة من جهة المعنى وما تهدف إليه.

قد عرّفه أبو حيان فى البحر المحيط بأنه: "علم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التى تُحمل عليها حالة التركيب، وتنتمت لذلك".

التفسير فى الاصطلاح: يرى بعض العلماء: أن التفسير ليس من العلوم التى يتكلف لها حد، لأنه ليس قواعد أو ملكات ناشئة من مزاولة القواعد كغيره من العلوم التى أمكن لها أن تشبه العلوم العقلية، ويكتفى فى إيضاح التفسير بأنه بيان كلام الله، أو أنه المبيّن لألفاظ القرآن ومفهوماتها.

ثم خرّج التعريف فقال: "فقولنا: "علم"، هو جنس يشمل سائر العلوم، وقولنا: "يُبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن"، هذا هو علم القراءات، وقولنا: "ومدلولاتها" أى مدلولات تلك الألفاظ، وهذا هو علم اللغة الذى يُحتاج إليه فى هذا العلم، وقولنا: "وأحكامها الإفرادية والتركيبية"، هذا يشمل علم التصريف، وعلم الإعراب، وعلم البيان، وعلم البديع، وقولنا: "ومعانيها التى تُحمل عليها حالة التركيب"، يشمل ما دللته عليه بالحقيقة، وما دللته عليه بالمجاز، فإن التركيب قد يقتضى بظاهرة شيئاً ويصد عن الحمل على الظاهر صاد فيحتاج لأجل ذلك أن يُحمل على الظاهر وهو المجاز، وقولنا: "وتنتمت لذلك"، هو معرفة النسخ وسبب النزول، وقصة توضيح بعض ما انبهم فى القرآن، ونحو ذلك".

وعرّفه الزركشى بأنه: "علم يفهم به كتاب الله المُنزّل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه".

وعرّفه بعضهم بأنه: "علم يُبحث فيه عن أحوال القرآن المجيد، من حيث دلالاته على مراد الله تعالى، بقدر الطاقة البشرية

المحاضرة الثانية التفسير فى عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم وأصحابه

نزل القرآن الكريم على نبي أمي، وقوم أميين، ليس لهم إلا ألسنتهم وقلوبهم، وكانت لهم فنون من القول يذهبون فيها مذاهبهم ويتواردون عليها، وكانت هذه الفنون لا تكاد تتجاوز ضروباً من الوصف، وأنواعاً من الحكم، وطائفة من

الأخبار والأنساب، وقليلاً مما جرى هذا المجرى، وكان كلامهم مشتتلاً على الحقيقة والمجاز، والتصريح والكناية. والإيجاز والإطناب.

وجرباً على سنة الله تعالى في إرسال الرسل، نزل القرآن بلغة العرب

وعلى أساليبهم في كلامه: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ} .. [إبراهيم: ٤] فألفاظ القرآن عربية، إلا ألفاظاً قليلة، اختلفت فيها أنظار العلماء، فمن قائل: إنها عربيت وأخذت من لغات أخرى، ولكن العرب هضمتها وأجرت عليها قوانينها فصارت عربية بالاستعمال. ومن قائل: إنها عربية بحتة، غاية الأمر أنها مما تواردت عليه اللغات، وعلى كلا القولين فهذه الألفاظ لا تُخرج القرآن عن كونه عربياً.

استعمل القرآن في أسلوبه الحقيقة والمجاز، والتصريح والكناية، والإيجاز والأطناب، وعلى نمط العرب في كلامهم. غير أن القرآن يعلو على غيره من الكلام العربي، بمعانيه الرائعة التي افتتن بها في غير مذاهبيهم، ونزع منها إلى غير فنونهم، تحقيقاً لإعجازه، ولكونه من لدن حكيم عليم

فهم النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة للقرآن:

وكان طبيعياً أن يفهم النبي صلى الله عليه وسلم جملة وتفصيلاً، إذ تكفل الله تعالى له بالحفظ والبيان: {إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ} [القيامة: ١٧-١٩] ، كما كان طبيعياً أن يفهم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم القرآن في جملة، أي بالنسبة لظاهره وأحكامه، أما فهمه تفصيلاً، ومعرفة دقائق باطنه، بحيث لا يغيب عنهم شاردة ولا واردة، فهذا غير ميسور لهم بمجرد معرفتهم للغة القرآن، بل لا بد لهم من البحث والنظر والرجوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيما يشكل عليهم فهمه، وذلك لأن القرآن فيه المجمل، والمشكل، والمتشابه، وغير ذلك مما لا بد في معرفته من أمور أخرى يرجع إليها.

ولا أظن الحق مع ابن خلدون حيث يقول في مقدمته: "إن القرآن نزل بلغة العرب، وعلى أساليب بلاغتهم، فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه"، نعم لا أظن الحق معه في ذلك، لأن نزول القرآن بلغة العرب لا يقتضى أن العرب كلهم كانوا يفهمونه في مفرداته وتراكيبه، وأقرب دليل على هذا ما نشاهده اليوم من الكتب المؤلفة على اختلاف لغاتها، وعجز كثير من أبناء هذه اللغات عن فهم كثير مما جاء فيها بلغتهم، إذ الفهم لا يتوقف على معرفة اللغة وحدها، بل لا بد لمن يفتش عن المعاني ويبحث عنها من أن تكون له موهبة عقلية خاصة، تتناسب مع درجة الكتاب وقوة تأليفه.

تفاوت الصحابة في فهم القرآن الكريم

ولو أننا رجعنا إلى عهد الصحابة لوجدنا أنهم لم يكونوا في درجة واحدة بالنسبة لفهم معاني القرآن، بل تفاوتت مراتبهم، وأشكل على بعضهم ما ظهر لبعض آخر منهم، وهذا يرجع إلى تفاوتهم في القوة العقلية، وتفاوتهم في معرفة ما أحاط بالقرآن من ظروف وملابسات، وأكثر من هذا، أنهم كانوا لا يتساوون في معرفة المعاني التي وضعت لها المفردات، فمن مفردات القرآن ما خفى معناه على بعض الصحابة، ولا ضير في هذا، فإن اللغة لا يحيط بها إلا معصوم، ولم يدع أحد أن كل فرد من أمة يعرف جميع ألفاظ لغتها.

تَخَوَّفَ الرَّحُلُ مِنْهَا تَامِكاً قَرِداً ... كَمَا تَخَوَّفَ عُوْدَ النَّبْعَةِ السَّفِينُومَا أَخْرَجَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ مِنْ طَرِيقِ مَجَاهِدٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: "كُنْتُ لَا

أدرى ما {فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ} حتى أتاني أعرابيان يتخاصمان في بئر،

فقال أحدهما: أنا فطرتها، والآخر يقول: أنا ابتدأتها".

فإذا كان عمر بن الخطاب يخفى عليه معنى "الأب" ومعنى "التخوف" ويسأل عنهما غيره، وابن عباس - وهو ترجمان القرآن - لا يظهر له معنى "فاطر" إلا بعد أن سمعها من غيره، فكيف شأن غيرهما من الصحابة؟ لا شك أن كثيراً منهم

كانوا يكتفون بالمعنى الإجمالى للآية، فيكفيهم - مثلاً - أن يعلموا من قوله تعالى: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ أنه تعداد للنعم التي أنعم الله بها عليهم، ولا يلزمون أنفسهم بتفهم معنى الآية تفصيلاً ما دام المراد واضحاً جلياً.

ومن تفسير القرآن بالقرآن: أن يُحمل المجمل على المبيّن لِيُفسّر به، وأمثلة ذلك كثيرة في القرآن، فمن ذلك تفسير قوله تعالى في سورة غافر الآية [٢٨]: ﴿وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدْكُمْ﴾ بأنه العذاب الأدنى المُعجل في الدنيا، لقوله تعالى في آخر هذه السورة آية [٧٧]: ﴿فَأَمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوْفِّئَنَّكَ فَإِنَّا يُرْجِعُونَ﴾ .. ومنه تفسير قوله تعالى في سورة النساء آية [٢٧]: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا﴾ بأهل الكتاب لقوله تعالى في السورة نفسها آية [٤٤]: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ .. ومنه قوله تعالى في سورة البقرة آية [٣٧]: ﴿فَتَلَقَىٰ آدَمُ

مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَسَرَّتْهَا الْآيَةَ [٢٣] من سورة الأعراف: ﴿قَالَ رَبِّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ .. ومنه قوله تعالى في سورة الأنعام آية [١٠٣]: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ فسرتها آية: ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ الآية [٢٣] من سورة القيامة. ومنه قوله تعالى في سورة المائدة آية [١]: ﴿أَجَلَّتْ لَكُمْ بِهِمَةَ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يَتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ .. فسرتها آية ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ الآية [٣] من السورة نفسها

ومن تفسير القرآن بالقرآن حمل المُطلق على المُقيّد، والعام على الخاص، فمن الأول: ما نقله الغزالي عن أكثر الشافعية من حمل المُطلق على المُقيّد في صورة اختلاف الحكمين عند اتحاد السبب، ومثّل له بأية الوضوء والتميم، فإن الأيدي مُقيّدة في الوضوء بالغاية في قوله تعالى في سورة المائدة آية [٦]: ﴿فَاعْسَلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ .. ومطلقة في التميم في قوله تعالى في الآية نفسها: ﴿فَامْسَحُوا بُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ .. فقيدت في التميم بالمرافق أيضاً، ومن أمثله أيضاً عند بعض العلماء: آية الظّهار مع آية القتل، ففي كفارة الظّهار يقول الله تعالى في سورة المجادلة آية [٣]: ﴿فَتَحْرِيرَ رَقَبَةٍ﴾ .. وفي كفارة القتل، يقول في سورة النساء آية [٩٢]: ﴿فَتَحْرِيرَ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ .. فيحمل المطلق في الآية الأولى على المُقيّد في الآية الثانية، بمجرد ورود اللفظ المقيد من غير حاجة إلى جامع عند هذا البعض من العلماء.

ومن الثانى: نفي الخُلة والشفاعة على جهة العموم في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَّ يَوْمٌ لَا يَبْعُ فِيهِ وَلَا خُلةً وَلَا شَفَاعَةً وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ .. وقد استثنى الله المتقين من نفي الخلة في قوله: ﴿الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ .. واستثنى ما أذن فيه من الشفاعة بقوله: ﴿وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مَن بَعَدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ .. ومثّل قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سِوَاءَ إِجْرَ بِهِ﴾ .. فإن ما فيها من عموم خصص بمثل قوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ ..

المصدر الثانى الذى كان يرجع إليه الصحابة في تفسيرهم لكتاب الله تعالى هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان الواحد منهم إذا أشكلت عليه آية من كتاب الله، رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في تفسيرها، فيبين له ما خفى عليه، لأن وظيفته البيان، كما أخبر الله عنه بذلك في كتابه حيث قال: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِنُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤] .. وكما نبّه على ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو داود بسنده إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ألا وإنى أوتيت الكتاب ومثله معه. ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرّموه" ... الحديث.

والذى يرجع إلى كتب السنّة يجد أنها قد أفردت للتفسير باباً من الأبواب التي اشتملت عليها، ذكرت فيه كثيراً من التفسير المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمن ذلك:

ما أخرجه أحمد والترمذى وغيرهما عن عدى بن حبان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن المغضوب عليهم هم اليهود، وإن الضّالين هم النصارى".

وما رواه الترمذى وابن حبان في صحيحه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الصلاة الوسطى صلاة العصر".

وما رواه أحمد والشيخان وغيرهما عن ابن مسعود قال: "لما نزلت هذه الآية: {الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم} [الأنعام: ٨٢] . شق ذلك على الناس فقالوا:

يا رسول الله؛ وأينا لا يظلم نفسه؟ قال: "إنه ليس الذى تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: إن الشرك لظلم عظيم؛ إنما هو الشرك".

وما أخرجه مسلم وغيره عن عقبة بن عامر قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو على المنبر: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ} [الأنفال: ٦٠] .. ألا وإن القوة الرمي".

وما أخرجه الترمذى عن عليّ قال: "سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن يوم الحج الأكبر فقال: "يوم النحر".

وما أخرجه الترمذى وابن جرير عن أبي بن كعب أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: {وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى} [الفتح: ٢٦] .. قال: "لا إله إلا الله".

وما أخرجه أحمد والشيخان وغيرهما عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من نوقش الحساب عُدب" قلت: أليس يقول الله: {فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا} [الانشقاق: ٨] ؟ قال: "ليس ذلك بالحساب.. ولكن ذلك العرض".

وما أخرجه أحمد ومسلم عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الكوثر نهر أعطانيه ربي فى الجنة".

وغير هذا كثير مما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

المقدار الذى بيّنه رسول الله صلى الله عليه وسلم من القرآن لأصحابه:

اختلف العلماء فى المقدار الذى بيّنه النبى صلى الله عليه وسلم من القرآن لأصحابه: فمنهم من ذهب إلى القول بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بيّن لأصحابه كل معانى القرآن كما بيّن لهم ألفاظه، وعلى رأس هؤلاء ابن تيمية.

ومنهم من ذهب إلى القول بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يُبيّن لأصحابه من معانى القرآن إلا القليل، وعلى رأس هؤلاء: الخوئى والسيوطى، وقد استدل كل فريق على ما ذهب إليه بأدلة نوردها ليتضح لنا الحق ويظهر الصواب.

*أدلة من قال النبى صلى الله عليه وسلم بيّن كل معانى القرآن:

أولاً: قوله تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} ..

والبيان فى الآية يتناول بيان معانى القرآن، كما يتناول بيان ألفاظه، وقد بيّن الرسول ألفاظه كلها، فلا بد أن يكون قد بيّن كل معانيه أيضاً، وإلا كان مقصراً فى البيان الذى كُلف به من الله.

ثانياً: ما روى عن أبى عبد الرحمن السلمى أنه قال: "حدّثن الذين كانوا يُقرئونا القرآن، كعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وغيرهما: أنهم كانوا إذا تعلّموا من النبى صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلّمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً"، ولهذا كانوا يبقون مدة طويلة فى حفظ السورة، وقد ذكر الإمام مالك فى الموطأ: أن ابن عمر أقام على حفظ "البقرة" ثمان سنوات المصدر الثالث من مصادر التفسير فى عصر الصحابة - الاجتهاد وقوة الاستنباط:

كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، إذا لم يجدوا التفسير فى كتاب الله، ولم يتيسر لهم أخذه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم رجعوا فى ذلك إلى اجتهادهم وإعمال رأيهم، وهذا بالنسبة لما يحتاج إلى نظر واجتهاد، أما ما يمكن فهمه بمجرد معرفة اللغة العربية فكانوا لا يحتاجون فى فهمه إلى إعمال النظر، ضرورة أنهم من خُصّ العرب، يعرفون كلام العرب ومناحيهم فى القول، ويعرفون الألفاظ العربية ومعانيها بالوقوف على ما ورد من ذلك فى الشعر الجاهلى الذى هو ديوان العرب، كما يقول عمر رضى الله عنه

أدوات الاجتهاد فى التفسير عند الصحابة:

وكثير من الصحابة كان يُفسّر بعض آي القرآن بهذا الطريق، أعنى طريق الرأى والاجتهاد، مستعيناً على ذلك بما يأتى:

أولاً: معرفة أوضاع اللغة وأسرارها.

ثانياً: معرفة عادات العرب.

ثالثاً: معرفة أحوال اليهود والنصارى فى جزيرة العرب وقت نزول القرآن.

رابعاً: قوة الفهم وسعة الإدراك.

فمعرفة أوضاع اللغة العربية وأسرارها، تعين على فهم الآيات التى لا يتوقف فهمها على غير لغة العرب. ومعرفة عادات العرب تعين على فهم كثير من الآيات التى لها صلة بعاداتهم، فمثلاً قوله تعالى: {إِنَّمَا النِّسْيَاءُ زِيَادَةٌ فِي الكُفْرِ} [التوبة: ٣٧] .. وقوله: {وَلَيْسَ البرِّ بِأَنْ تَأْتُوا البيوتَ مِن ظُهُورِهَا} [البقرة: ١٨٩] . لا يمكن فهم المراد منه، إلا لمن عرف عادات العرب فى الجاهلية وقت نزول القرآن.

ومعرفة أحوال اليهود والنصارى فى جزيرة العرب وقت نزول القرآن، تعين على فهم الآيات التى فيها الإشارة إلى أعمالهم والرد عليهم.

ومعرفة أسباب النزول، وما أحاط بالقرآن من ظروف وملابسات، تعين على فهم كثير من الآيات القرآنية، ولهذا قال الواحدى: "لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها". وقال ابن دقيق العيد: "بيان سبب النزول طريق قوى فى فهم معانى القرآن" وقال ابن تيمية: "معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية. فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب".

وأما قوة الفهم وسعة الإدراك، فهذا فضل الله يؤتیه مَنْ يشاء من عباده. وكثير من آيات القرآن يدق معناه، ويخفى المراد منه، ولا يظهر إلا لمن أوتى حظاً من الفهم ونور البصيرة، ولقد كان ابن عباس صاحب النصيب الأكبر والحظ الأوفر من ذلك، وهذا ببركة دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم له بذلك حيث قال: "اللَّهُمَّ فَفِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمَهُ التَّأْوِيلَ".

وقد روى البخارى فى صحيحه بسنده إلى أبى جحيفة رضى الله عنه أنه قال: "قلت لعلى رضى الله عنه: هل عندكم شئ من الوحي إلا ما فى كتاب الله؟ قال: لا، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما أعلمه إلا فهماً يُعطيه الله رجلاً فى القرآن، وما فى هذه الصحيفة، قلت: وما فى هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكك الأسير، وألاً يُقتل مسلم بكافر". هذه هى أدوات المصدر الرابع للتفسير فى عهد الصحابة هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى.

وذلك أن القرآن الكريم يتفق مع التوراة فى بعض المسائل، وبالأخص فى قصص الأنبياء، وما يتعلق بالأمم الغابرة، وكذلك يشتمل القرآن على مواضع وردت فى الإنجيل كقصة ميلاد عيسى ابن مريم، ومعجزاته عليه السلام.

غير أن القرآن الكريم اتخذ منهجاً يخالف منهج التوراة والإنجيل، فلم يتعرض لتفاصيل جزئيات المسائل، ولم يستوف القصة من جميع نواحيها، بل اقتصر من ذلك على موضع العبرة فقط.

ولما كانت العقول دائماً تميل إلى الاستيفاء والاستقصاء، جعل بعض الصحابة - رضى الله عنهم أجمعين - يرجعون فى استيفاء هذه القصص التى لم يتعرض لها

قرآن من جميع نواحيها إلى مَنْ دخل فى دينهم من أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام، وكعب الأحماس، وغيرهم من علماء اليهود والنصارى.

وهذا بالضرورة كان بالنسبة إلى ما ليس عندهم فيه شئ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنه لو ثبت شئ فى ذلك عن رسول الله ما كانوا يعدلون عنه إلى غيره مهما كان المأخوذ عنه.

المفسرون من الصحابة اشتهر بالتفسير من الصحابة عدد قليل، قالوا في القرآن بما سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم مباشرة أو بالواسطة، وبما شاهدوه من أسباب النزول، وبما فتح الله به عليهم من طريق الرأى والاجتهاد.

* أشهر المفسرين من الصحابة:

وقد عدَّ السيوطي رحمه الله في "الإتقان" مَنْ اشتهر بالتفسير من الصحابة وسَمَّاهم، وهم: الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير، رضى الله عنهم أجمعين.

وهناك مَنْ تكلم في التفسير من الصحابة غير هؤلاء: كأنس بن مالك، وأبي هريرة، وعبد الله بن عمر، وجابر بن عبد الله، وعبد الله بن عمرو ابن العاص، وعائشة، وغير أن ما نُقِلَ عنهم في التفسير قليل جداً، ولم يكن لهم من الشهرة بالقول في القرآن ما كان للعشرة المذكورين أولاً، كما أن العشرة الذين اشتهروا بالتفسير، تفاوتوا قِلَّةً وكثرة، فأبو بكر وعمر وعثمان لم يرد عنهم في التفسير إلا النزر اليسير، ويرجع السبب في ذلك إلى تقدم وفاتهم، واشتغالهم بمهام الخلافة والفتوحات، أضف إلى ذلك وجودهم في وسط أغلب أهله علماء بكتاب الله، واقفون على أسرارهم، عارفون بمعانيه وأحكامه، مكتملة فيهم خصائص العروبة، مما جعل الحاجة إلى الرجوع إليهم في التفسير غير كبيرة. أما علي بن أبي طالب رضى الله عنه، فهو أكثر الخلفاء الراشدين رواية عنه في التفسير، والسبب في ذلك راجع إلى تفرغه عن مهام الخلافة

عبد الله بن عباس

*ترجمته:

هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمه ألبابه الكبرى بنت الحارث بن حَزَن الهلالية. وَلِدَ والنبي عليه الصلاة والسلام وأهل بيته بالشَّعب بمكة. فَأَتَى به النبي عليه الصلاة والسلام فنحكه بريقه، وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين، ولازم النبي عليه الصلاة والسلام في صغره، لقربته منه، ولأن خالته ميمونة كانت من أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وله من العمر ثلاث عشرة سنة، وقيل: خمس عشرة، فلازم كبار الصحابة وأخذ عنهم ما فاتته من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت وفاته سنة ثمان وستين على الأرجح، وله من العمر سبعون سنة. مات بالطائف ودُفِنَ بها، وتولى وضعه في قبره محمد ابن الحنفية، وقال بعد أن سوَّى عليه التراب: مات والله اليوم حَبْرُ هذه الأمة

*مبلغه من العلم:

كان ابن عباس يُلقَّب بالحَبْر والبحر لكثرة علمه، وكان على درجة عظيمة من الاجتهاد والمعرفة بمعنى كتاب الله، ولذا انتهت إليه الرياسة في الفتوى والتفسير، وكان عمر رضى الله عنه يُجلسه في مجلسه مع كبار الصحابة ويُدنيه منه، وكان يقوله: إنك لأصبح فتياننا وجهاً، وأحسنهم خُلُقاً، وأفقههم في كتاب الله.

وقال في شأنه: ذاكم فتى الكهول، إنَّ له لساناً سئولاً، وقلباً عقولاً. وكان لفرط أدبه إذا سأله عمر مع الصحابة عن شيء يقول لا أتكلم حتى يتكلموا. وكان عمر رضى الله عنه يعتد برأى ابن عباس مع حداثة سنه، يدلنا على ذلك ما رواه ابن الأثير في كتابه "أسد الغابة" عن عبيد الله بن عتبة قال: "إن عمر كان إذا جاءته الأقضية المعضلة قال لابن عباس: إنها قد طرأت علينا أقضية وعضل، فأنت لها ولأمثالها، فكان يأخذ بقوله، وما كان يدعو لذلك أحداً سواه" قال عبيد الله: وعمر هو عمر في حدقه واجتهاده لله وللمسلمين، وما رواه البخاري من طريق سعيد بن جبیر عن ابن عباس قال: "كان عمر يُدخلني مع أشياخ بدر، فكان بعضهم وَجَدَ في نفسه وقال: لِمَ يُدخل هذا معنا وإنَّ لنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من أعلمكم، فدعاهم ذات يوم فأدخلني معهم، فما رأيت أنه دعاني يومئذ إلا ليريهم، فقال: ما تقولون في قوله: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} ؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم ولم يقل شيئاً، فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، فقال: ما تقول؟ قلت: هو أَجَلُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه الله له، قال: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} فذلك علامة أجلك، {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً} .. فقال عمر: لا أعلم منها إلا ما تقول".

وهذا يدل على قوة فهمه وجودة فكره. وقال فيه ابن مسعود رضى الله عنه: "نعم ترجمان القرآن ابن عباس". وقال فيه عطاء: "ما رأيت أكرم من مجلس ابن عباس، أصحاب الفقه عنده، وأصحاب القرآن عنده، وأصحاب الشعر عنده، يصدرهم كلهم من واد واسع". وقال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة: "كان ابن عباس قد فات الناس بخصال: بعلم ما سبقه، وبالجملة.. فقد كانت حياة ابن عباس حياة علمية، يتعلم ويعلم، ولم يشتغل

لإمارة إلا قليلاً لما استعمله علىّ على البصرة، والحق: أن ابن عباس قد ظهر فيه النبوغ العربى بأكمل معانيه. علماً، وفصاحة، وسعة اطلاع فى نواح علمية مختلفة، ولا سيما فهمه لكتاب الله تعالى. وخير ما يُقال فيه ما قاله ابن عمر رضى الله عنهما: "ابن عباس أعلم أمة محمد بما نزل على محمد".

* * سأله فقال: كانت السموات رتقاً لا تمطر، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت، ففتق هذه بالمطر، وهذه بالنبات، فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره فقال: قد كنتُ أقول: ما يعجبني جرأة ابن عباس على تفسير القرآن، فالآن قد علمتُ أنه أوتيَ علماً.

هذه هى أهم الأسباب التى ترجع إليها شهرة ابن عباس فى التفسير، يضاف إلى ذلك كونه من أهل بيت النبوة، منبع الهداية، ومصدر النور، وما وهبه الله من قريحة وقادة، وعقل راجح، ورأى صائب، وإيمان راسخ، ودين متين.

مدارس التفسير فى عصر التابعين:

فتح الله على المسلمين كثيراً من بلاد العالم فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفى عهود الخلفاء من بعده، ولم يستقروا جميعاً فى بلد واحد من بلاد المسلمين، بل نأى الكثير منهم عن المدينة مشرق النور الإسلامى ثم استقر بهم النوى، موزعين على جميع البلاد التى دخلها الإسلام، وكان منهم الولاة، ومنهم الوزراء، ومنهم القضاة، ومنهم المعلمون، ومنهم غير ذلك

قد حمل هؤلاء معهم إلى هذه البلاد التى رحلوا إليها، ما وعوه من العلم، وما حفظوه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجلس إليهم كثير من التابعين يأخذون العلم عنهم، وينقلونه لمن بعدهم، فقامت فى هذه الأمصار المختلفة مدارس علمية، أساتذتها الصحابة، وتلاميذها التابعون.

واشتهر بعض هذه المدارس بالتفسير، وتتلذذ فيها كثير من التابعين لمشاهير المفسرين من الصحابة، فقامت مدرسة للتفسير بمكة، وأخرى بالمدينة، وثالثة بالعراق، وهذه المدارس الثلاث، هى أشهر مدارس التفسير فى الأمصار فى هذا العهد.

قال ابن تيمية: "وأما التفسير فأعلم الناس به أهل مكة، لأنهم أصحاب ابن عباس كمجاهد، وعطاء بن أبى رباح، وعكرمة مولى ابن عباس، وغيرهم من أصحاب ابن عباس، كطاووس، وأبى الشعثاء، وسعيد بن جبير، وأمثالهم. وكذلك أهل الكوفة من أصحاب ابن مسعود، ومن ذلك ما تميزوا به عن غيرهم، وعلماء أهل المدينة فى التفسير، مثل زيد بن أسلم، الذى أخذ عنه مالك التفسير، وأخذ عنه أيضاً ابنه عبد الرحمن، وعبد الله بن وهب".

وأرى أن أتكلم عن كل مدرسة من هذه المدارس الثلاث، وعن أشهر المفسرين من التابعين الذين أخذوا التفسير عن أساتذة هذه المدارس من الصحابة، فأقول وبالله التوفيق:

أولاً: مدرسة التفسير بمكة

* قيامها على ابن عباس:

قامت مدرسة التفسير بمكة على عبد الله بن عباس رضى الله عنهما، فكان يجلس لأصحابه من التابعين، يُفسر لهم كتاب الله تعالى، ويوضح لهم ما أشكل من معانيه، وكان تلاميذه يعون عنه ما يقول، ويروون لمن بعدهم ما سمعوه منه.

* أشهر رجالها:

وقد اشتهر من تلاميذ ابن عباس بمكة: سعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة مولى ابن عباس، وطاووس بن كيسان اليماني، وعطاء بن أبي رباح.

وهؤلاء كلهم كانوا من الموالى، وهم يختلفون فى الرواية عن ابن عباس قلة وكثرة، كما اختلف العلاء فى مقدار الثقة بهم والركون إليهم.

ونسوق الحديث عن كل واحد منهم، ليتضح لنا مكانته فى التفسير، ومقدار الاعتماد عليه فيه:

سعيد بن جبير

* ترجمته:

هو أبو محمد - أو أبو عبد الله - سعيد بن جبير بن هشام الأسدى الوالبي، مولاهم. كان حبشى الأصل، أسود اللون، أبيض الخصال. سمع جماعة من أئمة الصحابة. وروى مكانته فى التفسير:

كان رحمه الله من كبار التابعين ومتقدميهم فى التفسير والحديث والفقه، أخذ القراءة عن ابن عباس عرضاً، وسمع منه التفسير، وأكثر روايته عنه وقد جمع سعيد القراءات الثابتة عن الصحابة وكان يقرأ بها، يدلنا على ذلك ما جاء عن إسماعيل بن عبد الملك أنه قال: "كان سعيد بن جبير يؤمنا فى شهر رمضان فيقرأ ليلة بقراءة عبد الله بن مسعود، وليلة بقراءة زيد بن ثابت، وليلة بقراءة غيره، وهكذا أبداً"، ولا شك أن جمعه لهذه القراءات كان يعطيه القدرة على التوسع فى معرفة معانى القرآن وأسراره، ولكن يظهر لنا أنه كان يتورع من القول فى التفسير برأيه، يدلنا على ذلك ما رواه ابن خلكان: من أن رجلاً سأل سعيداً أن يكتب له تفسير القرآن فغضب وقال: لأن يسقط شقى أحب إليّ من ذلك. ولقد جمع سعيد علم أصحابه من التابعين، وألمّ بما عندهم من النواحي التى برزوا فيها، فقد قال خصيف: "كان من أعلم التابعين بالطلاق سعيد بن المسيب. وبالحدج عطاء، وبالحدال والحرام طاووس، وبالتفسير أبو الحجاج مجاهد بن جبر، وأجمعهم لذلك كله سعيد بن جبير".

لهذا كله نجد أستاذه ابن عباس يثق بعلمه، ويحيل عليه من يستفتيه، وكان يقول لأهل الكوفة إذا أتوه ليسألوه عن شئ: أليس فيكم ابن أم الدهماء؟ - يعنى سعيد بن جبير - ويروى عمرو بن ميمون عن أبيه أنه قال: لقد مات سعيد بن جبير وما على ظهر الأرض أحد إلا وهو محتاج إلى علمه. ويرى بعض العلماء أنه مُقَدَّم على مجاهد وطاووس فى العلم، وكان قتادة يرى أنه أعلم التابعين بالتفسير.

ثانياً: مدرسة التفسير بالمدينة

*قيامها على أبي بن كعب:

كان بالمدينة كثير من الصحابة، أقاموا بها ولم يتحولوا عنها كما تحول كثير منهم إلى غيرها من بلاد المسلمين، فجلسوا لأتباعهم يعلمونهم كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فقامت بالمدينة مدرسة للتفسير، تتلمذ فيها كثير من التابعين لمشاهير المفسرين من الصحابة. ونستطيع أن نقول: إن قيام هذه المدرسة كان على أبي بن كعب، الذى يُعتبر بحق أشهر من تتلمذ له مفسرو التابعين بالمدينة، وذلك لشهرته أكثر من غيره فى التفسير، وكثرة ما نُقل لنا عنه فى ذلك.

* أشهر رجالها:

وقد وُجد بالمدينة فى هذا الوقت كثير من التابعين المعروفين بالتفسير، اشتهر من بينهم ثلاثة، هم: زيد بن أسلم، وأبو العالية، ومحمد بن كعب القرظى. وهؤلاء منهم من أخذ عن أبي مباشرة، ومنهم من أخذ عنه بالواسطة.

وأرى أن أسوق نبذة عن تاريخ كل واحد من هؤلاء الثلاثة، بما يتناسب مع جانبه العلمى فى التفسير فأقول:

١- أبو العالية

* ترجمته ومكانته في التفسير: هو أبو العالية ربيع بن مهران الرياحي مولاهم، أدرك الجاهلية، وأسلم بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بسنتين. روى عن عليّ، وابن مسعود، وابن عباس. وابن عمر، وأبيّ

ن كعب، وغيرهم، وهو من ثقات التابعين المشهورين بالتفسير. قال فيه ابن معين، وأبو زرعة، وأبو حاتم: ثقة. وقال اللالكائي: مجمع على ثقته. وقال فيه العجلي أصحاب الكتب الستة. وكان يحفظ القرآن ويتقنه، وروى قتادة عنه أنه قال: قرأت القرآن بعد وفاة نبيكم بعشر سنين. وروى معمر عن هشام عن حفصة عنه أنه قال: قرأت القرآن على عهد عمر ثلاث مرات. وقال فيه ابن أبي داود: ليس أحد بعد الصحابة أعلم بالقراءة من أبي العالية.

وتروى عن أبيّ بن كعب نسخة كبيرة في التفسير، يرويها أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبيّ. وقلنا فيما تقدم: إن هذا الإسناد صحيح، وقلنا أيضاً: إن ابن جرير وابن أبي حاتم أخرجوا من هذه النسخة كثيراً، كما أخرج منها الحاكم في مستدركه، والإمام أحمد في مسنده. وكانت وفاته سنة ٩٠ هـ (تسعين من الهجرة) على أرجح الأقوال في ذلك.

٢- محمد بن كعب القرظي

* ترجمته ومكانته في التفسير:

هو أبو حمزة - أو أبو عبد الله - محمد بن كعب بن سليم بن أسد القرظي المدني، من حلفاء الأوس. روى عن عليّ، وابن مسعود، وابن عباس، وغيرهم. وروى عن أبيّ بن كعب بالواسطة. وقد اشتهر بالثقة، والعدالة، والورع، وكثرة الحديث، وتأويل القرآن. قال ابن سعد: كان ثقة، عالماً، كثير الحديث، ورعاً. وقال العجلي: مدني وتابعي، ثقة، رجل صالح. عالم بالقرآن. وهو عند أصحاب الكتب الستة. وقال ابن عون: ما رأيت أحداً أعلم بتأويل القرآن من القرظي. وقال ابن حبان: كان من أفاضل أهل المدينة علماً وفقهاً، وكان يقص في المسجد فسقط عليه وعلى أصحابه سقف فمات هو وجماعة معه تحت الهدم، سنة ١١٨

ثالثاً: مدرسة التفسير بالعراق

* قيامها على ابن مسعود:

قامت مدرسة التفسير بالعراق على عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وكان هناك غيره من الصحابة أخذ عنهم أهل العراق التفسير، غير أن عبد الله بن مسعود كان يعتبر الأستاذ الأول لهذه المدرسة، نظراً لشهرته في التفسير وكثرة المروى عنه في ذلك، ولأن عمر رضي الله عنه لما وليّ عمار بن ياسر على الكوفة، سيّر معه عبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً، فكونه معلماً أهل الكوفة بأمر أمير المؤمنين عمر، جعل الكوفيين يجلسون إليه، ويأخذون عنه أكثر مما يأخذون عن غيره من الصحابة ويمتاز أهل العراق بأنهم أهل الرأي. وهذه ظاهرة نجدها بكثرة في مسائل الخلاف، ويقول العلماء: إن ابن مسعود هو الذي وضع الأساس لهذه الطريقة في الاستدلال، ثم توارثها عنه علماء العراق، ومن الطبيعي أن تؤثر هذه الطريقة في مدرسة التفسير، فيكثر تفسير بالرأي والاجتهاد، لأن استنباط مسائل الخلاف الشرعية، نتيجة من نتائج أعمال الرأي في فهم نصوص القرآن والسنة.

* أشهر رجالها:

وقد عُرف بالتفسير من أهل العراق كثير من التابعين، اشتهر من بينهم علقمة بن قيس، ومسروق، والأسود بن يزيد، ومرة الهمداني، وعامر الشعبي، والحسن البصري، وقتادة بن دعامة السدوسي، وبتكلم عن كل واحد من هؤلاء على الترتيب:

١- علقمة بن قيس

* ترجمته ومكانته في التفسير:

هو علقمة بن قيس، بن عبد الله، بن مالك، النخعي الكوفي، ولد في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم. روى عن عمر، وعثمان، وعليّ، وابن مسعود، وغيرهم. وهو من أشهر رواة عبد الله بن مسعود، وأعرفهم به، وأعلمهم بعلمه. قال عثمان بن سعيد: قلت لابن معين: علقمة أحب إليك أم عبيدة؟ فلم يخير، قال عثمان: كلاهما ثقة، وعلقمة أعلم بعبد الله. وقال أبو المثني: إذا رأيت علقمة فلا يضرك أن لا ترى عبد الله، أشبه الناس به سَمناً وهدياً. وقال داود بن أبي هند: قلت لشعبة: أخبرني عن أصحاب عبد الله، قال: كان علقمة أنظر القوم به. وروى عبد الرحمن بن يزيد قال: قال عبد الله: ما أقرأ شيئاً ولا أعلمه إلا علقمة يقرؤه ويعلمه. وقال إبراهيم النخعي: كان أصحاب عبد الله الذين يقرئون الناس ويعلمونهم السنّة ويصدر الناس عن رأيهم ستة: علقمة، والأسود... وذكر الباقرين. وكان رحمه الله ثقة مأموناً، على جانب عظيم من الورع والصلاح. قال فيه الإمام أحمد: ثقة من أهل الخير. وهو عند أصحاب الكتب الستة. وقال مرة الهمداني: كان علقمة من الربانيين، قال أبو نعيم: مات سنة ٦١ هـ (إحدى وستين، أو اثنتين وستين من الهجرة)، وعمره تسعون سنة.

مسروق

* ترجمته ومكانته في التفسير:

هو أبو عائشة، مسروق بن الأجدع بن مالك بن أمية الهمداني الكوفي العابد. سأله عمر يوماً عن اسمه فقال له: اسمي مسروق بن الأجدع، فقال عمر: الأجدع شيطان، أنت مسروق بن عبد الرحمن، روى عن الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وأبي بن كعب، وغيرهم، وكان أعلم أصحاب ابن مسعود، يمتاز بورعه وعلمه وعدالته، وكان شريح القاضي يستشيره في معضلات المسائل. وقال مالك بن مغول: سمعت أبا السفر غير مرة قال: ما ولدت همدانية مثل مسروق. وقال الشعبي: ما رأيت أطلب للعلم منه. وقال عليّ بن المديني: ما أقدم على مسروق من أصحاب عبد الله أحداً. وهذه الشهادة من ابن المديني، يبدو أنها قائمة على ما امتاز به مسروق من غزارة العلم الذي استفاده من جلوسه لكثير من الصحابة ولابن مسعود على الأخص، الأمر الذي جعله يجمع بين علم هؤلاء جميعاً، ولقد حدّث مسروق - رضى الله عنه - أنه جالس أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فوجدهم كالإخاذ، فالإخاذ يروى الرجل، والإخاذ يروى الرجلين، والإخاذ يروى العشرة، والإخاذ يروى المائة، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم.

ثم إن هذا التلمذ لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولابن مسعود الذي اشتهر بتفسير القرآن، جعل من مسروق إماماً في التفسير، وعالماً خبيراً بمعاني كتاب الله تعالى. وقد حدّث مسروق بما يدل على أنه استفاد الكثير من التفسير عن أستاذه ابن مسعود فقال: كان عبد الله - يعني ابن مسعود - يقرأ علينا السورة ثم يُحدّثنا فيها ويُفسّرُها عامة النهار

التفسير بالمأثور

يشمل التفسير المأثور ما جاء في القرآن نفسه من البيان والتفصيل لبعض آياته، وما نُقل عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وما نُقل عن الصحابة رضوان الله عليهم، وما نُقل عن التابعين، من كل ما هو بيان وتوضيح لمراد الله تعالى من نصوص كتابه الكريم.

وإنما أدرجنا في التفسير المأثور ما رُوِيَ عن التابعين - وإن كان فيه خلاف: هل هو من قبيل المأثور أو من قبيل الرأي - لأننا وجدنا كتب التفسير المأثور، كتفسير ابن جرير وغيره، لم تقتصر على ما ذُكر ما رُوِيَ عن النبي صلى الله عليه وسلم وما رُوِيَ عن أصحابه، بل ضمت إلى ذلك ما نُقل عن التابعين في التفسير.

* تدرج التفسير المأثور:

تدرج التفسير المأثور في دوريه - دور الرواية ودور التدوين - أما في دور الرواية، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم بيّن لأصحابه ما أشكل عليهم من معاني القرآن، فكان هذا القدر من التفسير يتناوله الصحابة بالرواية بعضهم لبعض، ولمن جاء بعدهم من التابعين.

ثم وُجد من الصحابة مَنْ تكلم في تفسير القرآن بما ثبت لديه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو بمحض رأيه واجتهاده، وكان ذلك على فِلة يرجع السبب فيها إلى الروعة الدينية التي كانت لهذا العهد، والمستوى العقلي الرفيع لأهله،

وتحدد حاجات حياتهم ثم وُجد من التابعين مَنْ تصدَّى للتفسير، فروى ما تجمَّع لديه من ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة، وزاد على ذلك من القول بالرأى والاجتهاد، بمقدار ما زاد من الغموض الذى كان يتزايد كلما بُعد الناس عن عصر النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة.

ثم جاءت الطبقة التى تلى التابعين وروت عنهم ما قالوا، وزادوا عليه بمقدار ما زاد من غموض ... وهكذا ظل التفسير يتضخم طبقة بعد طبقة، وتروى الطبقة التالية ما كان عند الطبقات التى سبقتها، كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق. التفسير، هو التفسير المأثور، على تدرج فى التدوين كذلك، فكان رجال الحديث والرواية هم أصحاب الشأن الأول وقد رأينا أصحاب مبادئ العلوم حين ينسبون

*على عاداتهم - وضع كل علم لشخص بعينه، يعدون واضع التفسير - بمعنى جامعه لا مدونه - الإمام مالك بن أنس الأصبغى، إمام دار الهجرة.

وكان التفسير إلى هذا الوقت لم يتخذ له شكلاً منظماً، ولم يُفرد بالتدوين، بل كان يُكتب على أنه باب من أبواب الحديث المختلفة، يجمعون فيه ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة والتابعين.

ثم بعد ذلك انفصل التفسير عن الحديث، وأُفرد بتأليف خاص، فكان أول ما عُرف لنا من ذلك، تلك الصحيفة التى رواها على بن أبى طلحة عن ابن عبا

ثم ابتداءً دور التدوين - وهو ما يعيننا فى هذا البحث - فكان أول ما دُوّن من الضعف فى رواية التفسير المأثور وأسبابه:

علمنا مما تقدّم أن التفسير المأثور يشمل ما كان تفسيراً للقرآن بالقرآن، وما كان تفسيراً للقرآن بالسنة، وما كان تفسيراً للقرآن بالموقوف على الصحابة أو المروى عن التابعين. أما تفسير القرآن بالقرآن. أو بما ثبت من السنة الصحيحة، فذلك مما لا خلاف فى قبوله، لأنه لا يتطرق إليه الضعف. ولا يجد الشك إليه سبيلاً.

أما ما أُضيف إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو ضعيف فى سنده أو متنه فذلك مردود غير مقبول، ما دام لم تصح نسبته إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

وأما تفسير القرآن بما يُروى عن الصحابة أو التابعين، فقد تسرّب إليه الخلل، وتطرّق *

إليه الضعف، إلى حد كاد يُفقدنا الثقة بكل ما روى من ذلك، لولا أن قيّض الله لهذا التراث العظيم مَنْ أزاح عنه هذه الشكوك، فسلمت لنا منه كمية لا يُستهان بها، وإن كان صحيحها وسقيمها لا يزال خليطاً فى كثير من الكتب التى عني أصحابها بجمع شتات الأقوال.

ولقد كانت كثرة المروى من ذل كثرة جاوزت الحد - وبخاصة عن ابن عباس وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهما - أكبر عامل فى صرف همة العلماء ولفت أنظارهم إلى البحث والتمحيص، والنقد والتعديل والتجريح، حتى لقد نُقل عن الإمام الشافعى رضى الله عنه أنه قال: "لم يثبت عن ابن عباس فى التفسير إلا شبيه بمائة حديث". وهذا العدد الذى ذكره الشافعى، لا يكاد يُذكر بجوار ما روى عن ابن عباس من التفسير. وهذا يدل على مبلغ ما دخل من التفسير النقل من الروايات المكذوبة المصنوعة.

أولاً: الوضع فى التفسير

* نشأة الوضع فى التفسير:

نشأ الوضع فى التفسير مع نشأته فى الحديث، لأنهما كانا أول الأمر مزيجاً لا يستقل أحدهما عن الآخر، فكما أننا نجد فى الحديث: الصحيح والحسن والضعيف، وفى روايته مَنْ هو موثوق به، ياسياً، وتفرّقوا إلى شيعة وخوارج وجمهور، ووُجد من أهل البدع والأهواء مَنْ روجوا لبدعهم، وتعصّبوا لأهوائهم، ودخل فى الإسلام مَنْ تبطن الكفر والتحف الإسلام

بقصد الكيد له، وتضليل أهله، فوضعوا ما وضعوا من روايات باطلة، ليصلوا بها إلى أغراضهم السيئة، ورغباتهم الخبيثة. - * أسبابه:

ويرجع الوضع في التفسير إلى أسباب متعددة: منها التعصب المذهبي، فإن ما جَدَّ من افتراق الأمة إلى شيعة تطرّفوا في حب عليّ، وخوارج انصرفوا عنه وناصروه العداء، وجمهور المسلمين الذين وقفوا بجانب هاتين الطائفتين بدون أن يمسمهم شئ من ابتداع التشيع أو الخروج، جعل كل طائفة من هذه الطوائف تحاول بكل جهودها أن تؤيد مذهبها بشئ من القرآن، فنسب الشيعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وإلى عليّ وغيره من أهل البيت - رضى الله عنهم أقوالاً كثيرة من التفسير تشهد لمذهبهم. كما وضع الحوارج كثيراً من التفسير الذى يشهد لمذهبهم، ونسبوه إلى النبي صلى الله عليه وسلم أو إلى أحد أصحابه، وكان قصد كل فريق من نسبة هذه الموضوعات إلى النبي صلى الله عليه وسلم أو إلى أحد أصحابه، الترويج للمروى، والإمعان في التدليس، فإن نسبة المروى إلى الرسول عليه الصلاة والسلام أو إلى أحد الصحابة، تورث المروى ثقة وقبولاً. لا يوجد شئ منهما عندما يُنسب المروى لغير النبي عليه الصلاة والسلام أو لغير صحابى.

كذلك نجد اللون السياسى فى هذا العصر يترك له أثراً بيّناً فى وضع التفسير، ويُلاحَظ أن المروى عن عليّ وابن عباس رضى الله عنهما قد جاوز حد الكثرة، مما يجعلنا نميل إلى القول بأنه قد وُضع عليهما فى التفسير أكثر مما وُضع على غيرهما، والسبب فى ذلك أنّ علياً وابن عباس رضى الله عنهما من بيت النبوة، فالوضع عليهما يُكسب الموضوع ثقة وقبولاً، وتقديساً ورواجاً، مما لا يكون لشئ مما يُنسب إلى غيره أثر الوضع فى التفسير:

وكان من وراء هذه الكثرة التى دخلت فى التفسير ودُسّت عليه، أن ضاع كثير من هذا التراث العظيم الذى خلفه لنا أعلام المفسّرين من السلف، لأن ما أحاط به من شكوك، أفقدنا الثقة به، وجعلنا نرد كل رواية تطرّق إليها شئ من الضعف، وربما كانت صحيحة فى ذاتها.

كما أن اختلاط الصحيح من هذه الروايات بالسقيم منها، جعل بعض من ينظر فيها وليس عنده القدرة على التمييز بين الصحيح والعليل، ينظر إلى جميع ما رُوِيَ بعين واحدة، فيحكم على الجميع بالصحة، وربما وُجِدَ من ذلك روايتين متناقضتين عن مفسّر واحد فيتهمه بالتناقض فى قوله، ويتهم المسلمين بقبول هذه الروايات المتناقضة المتضاربة.

ثانياً: الإسرائيليات

* تمهيد - فى بيان المراد بالإسرائيليات ومدى الصلة بينها وبين القرآن:

لفظ الإسرائيليات وإن كان يدل بظاهره على اللون اليهودى للتفسير، وما كان للثقافة اليهودية من أثر ظاهر فيه، إلا أننا نريد به ما هو أوسع من ذلك وأشمل، فنريد به ما يعم اللون اليهودى واللون النصرانى للتفسير، وما تأثر به التفسير من الثقافتين اليهودية والنصرانية.

وإنما أطلقنا على جميع ذلك لفظ "الإسرائيليات"، من باب التغليب للجانب اليهودى على الجانب النصرانى، فإن الجانب اليهودى هو الذى اشتهر أمره فكثرت النقل عنه، وذلك لكثرة أهله، وظهور أمرهم، وشدة اختلاطهم بالمسلمين من مبدأ ظهور الإسلام إلى أن بسط قيمة ما يُروى من الإسرائيليات:

تنقسم الأخبار الإسرائيلية إلى أقسام ثلاثة، وهى ما يأتى:

القسم الأول: ما يُعلم صحته بأن نُقِلَ عن النبي صلى الله عليه وسلم نقلاً صحيحاً، وذلك كتعيين اسم صاحب موسى عليه السلام بأنه الخضر، فقد جاء هذا الاسم صريحاً على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم كما عند البخارى أو كان له شاهد من الشرع يؤيده. وهذا القسم صحيح مقبول.

القسم الثانى: ما يُعلم كذبه بأن يناقض ما عرفناه من شرعنا، أو كان لا يتفق مع العقل، وهذا القسم لا يصح قبوله ولا روايته.

القسم الثالث: ما هو مسكوت عنه، لا هو من قبيل الأول، ولا هو من قبيل الثانى، وهذا القسم نتوقف فيه، فلا نؤمن به ولا نُكذِّبه، وتجوز حكايته، لما تقدّم من قوله صلى الله عليه وسلم:

لا تصدقوا اليهود ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا

هذا القسم غالبه مما ليس فيه فائدة تعود إلى أمر ديني، ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في مثل هذا اختلافاً كثيراً، ويأتى عن المفسرين خلاف بسبب ذلك، كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف، ولون كلبهم، وعصا موسى من أى الشجر كانت، وأسماء الطيور التى أحيهاها الله لإبراهيم، وتعيين بعض البقرة الذى ضرب به قتييل بنى إسرائيل، ونوع الشجرة التى كلّم الله منها موسى.. إلى غير ذلك مما أبهمه الله فى القرآن ولا فائدة فى تعيينه تعود على المكلفين فى دينهم أو دينهم.

ثم إذا جاء شى من هذا القبيل - أعنى ما سكت عنه الشرع ولم يكن فيه ما يؤيده أو يفنده موقف المفسر إزاء هذه الإسرائيليات:

علمنا أن كثرة النقل عن أهل الكتاب بدون تفرقة بين الصحيح والعليل دسيسة دخلت فى ديننا واستفحل خطرهما، كما علمنا أن قوله صلى الله عليه وسلم: "لا تُصدّقوا أهل الكتاب ولا تُكذّبوهم" قاعدة مقرّرة لا يصح العدول عنها بأى حال من الأحوال، وبعد هذا وذاك نقول: إنه يجب على المفسر أن يكون يقظاً إلى أبعد حدود اليقظة، ناقداً إلى نهاية ما يصل إليه النقاد من دقة وروية حتى يستطيع أن يستخلص من هذا الهشيم المركوم من الإسرائيليات ما يناسب روح القرآن، ويتفق مع العقل والنقل، كما يجب عليه أن لا يرتكب النقل عن أهل الكتاب إذا كان فى سُنّة نبينا صلى الله عليه وسلم بيان لمجمل القرآن، فمثلاً حيث وجد لقوله- تعالى :

{وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ} [ص: ٣٤] مجمل فى السُنّة النبوية الصحيحة وهو قصة ترك "إن شاء الله" والمؤاخذه عليه فلا يرتكب قصة صخر المارد.

كذلك يجب على المفسر أن يلحظ أن الضرورى يتقدّر بقدر الحاجة، فلا يذكر فى تفسيره شيئاً من ذلك إلا بقدر ما يقتضيه بيان الإجمال، ليحصل التصديق بشهادة القرآن فيكيف اللسان عن الزيادة.

نعم ... إذا اختلف المتقدمون فى شى من هذا القبيل وكثرت أقوالهم ونقولهم، فلا مانع من نقل المفسر لهذه الأقوال جميعاً، على أن ينبه على الصحيح منها، ويبطل الباطل، ولي أقطاب الروايات الإسرائيلية:

يتصفح الإنسان كتب التفسير بالمأثور، فلا يلبث أن يلحظ أن غالب ما يرى فيها من إسرائيليات، يكاد يدور على أربعة أشخاص، هم: عبد الله ابن سلام، وكعب الأحبار، ووهب بن منبّه، وعبد الملك بن عبد العزيز ابن جريج.. وهؤلاء الأربعة اختلفت أنظار الناس فى الحكم عليهم والثقة بهم، فمنهم من ارتفع بهم عن حد التهمة، ومنهم من رماهم بالكذب وعدم التثبت فى الرواية ولهذا أرى أن أعرض لكل فرد منهم، لأكتشف عن قيمته فى باب الرواية، وبخاصة ما يرجع من ذلك إلى ناحية التفسير، لنرى أى الفريقين أصدق فى حكمه، وأدق فى نقده.

١- عبد الله بن سلام

* ترجمته:

هو أبو يوسف عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي الأنصاري وهو من ولد يوسف بن يعقوب عليهما السلام. أسلم عند قدوم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة. ويحدثنا البخارى عن قصة إسلامه فيقول فى ضمن حديث ساقه فى باب الهجرة: " ... فلما جاء نبي الله صلى الله عليه وسلم، جاء عبد الله بن سلام فقال: أشهد أنك رسول الله، وأنتك جئت بحق، وقد علمت اليهود أنى سيدهم وابن سيدهم، وأعلمهم وابن أعلمهم، فادعهم فاسألهم عنى قبل أن يعلموا أنى قد أسلمت، فإنهم إن يعلموا أنى قد أسلمت قالوا فى ما ليس فىّ، فأرسل نبي الله صلى الله عليه وسلم، فأقبلوا فدخلوا عليه، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه أشهر الكتب المدونة فى التفسير بالمأثور

لا نريد أن نستقصى هنا جميع الكتب المدونة في التفسير المأثور، لأن هذا أمر لا يتيسر لنا، نظراً لعدم وقوع كثير منها في أيدينا. ولو تيسر لنا لوقفنا عند عزمي هذا: وهو أنني لا أتعرض لكل كتاب أُلف في هذا النوع من التفسير، بل أتكلم عما اشتهر وكثر تداوله فحسب، لأني لو ذهبت أتكلم عن جميع ما دُون من هذه الكتب، كتاباً كتاباً، لطال على الأمر، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: "إِنَّ الْمُنبِتَّ لَا أَرْضًا قَطَعَ وَلَا ظَهراً أَبْقَى".

لهذا رأيت أن أتكلم عن ثمانية كتب منها، هي أهمها وأشهرها وأكثرها تداولاً، وسببلي في هذا: أن أعرض أولاً لنبذة مختصرة عن المؤلف، ثم أبين خصائص كل كتاب وطريقة مؤلفه فيه، وهذه الكتب التي وقع عليها اختياري هي ما يأتي:

١ - جامع البيان في تفسير القرآن: لابن جرير الطبري

٢ - بحر العلوم: لأبي الليث السمرقندي

٣ - الكشف والبيان عن تفسير القرآن: لأبي إسحاق الثعلبي

٤ - معالم التنزيل: لأبي محمد الحسين البغوي

٥ - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: لابن عطية الأندلسي.

٦ - تفسير القرآن العظيم: لأبي الفداء الحافظ ابن كثير

٧ - الجواهر الحسان في تفسير القرآن: لعبد الرحمن الثعالبي

٨ - الدر المنثور في التفسير المأثور: لجلال الدين السيوطي

جامع البيان في تفسير القرآن (للطبري)

* التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير، هو أبو جعفر، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير ابن غالب الطبري، الإمام الجليل، المجتهد المطلق، صاحب التصانيف المشهورة، وهو من أهل أمل طبرستان، وُلِدَ بها سنة ٢٢٤ هـ (أربع وعشرين ومائتين من الهجرة)، ورحل من بلده في طلب العلم وهو ابن اثنتي عشرة سنة، سنة ٢٣٦ هـ (ست وثلاثين ومائتين)، وطُوفَ في الأقاليم، فسُمِعَ بمصر والشام والعراق، ثم ألقى عصاه واستقر ببغداد، وبقي بها إلى أن مات سنة ٣١٠ هـ (عشر وثلاثمائة من الهجرة).

* مبلغه من العلم والعدالة: كان بصيراً بالقرآن، عارفاً بالمعاني، فقيهاً في أحكام القرآن، عالماً بالسنن وطرقها، وصحيحها وسقيمها، وناسخها ومنسوخها، عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين ومن التفسير بالرأي أصحاب الرأي: أي أصحاب القياس.

والمراد بالرأي هنا "الاجتهاد" وعليه فالتفسير بالرأي، عبارة عن تفسير القرآن بالاجتهاد بعد معرفة المفسر لكلام العرب ومناحيهم في القول، ومعرفته للألفاظ العربية ووجوه دلالاتها، واستعانتة في ذلك بالشعر الجاهلي ووقوفه على أسباب النزول، ومعرفته بالناسخ والمنسوخ من آيات القرآن، وغير ذلك من الأدوات التي يحتاج إليها المفسر، وسنذكرها قريباً إن شاء الله تعالى.

* موقف العلماء من التفسير بالرأي: اختلف العلماء من قديم الزمان في جواز تفسير القرآن بالرأي، ووقف المفسرون بإزاء هذا الموضوع موقفين متعارضين: فقوم تشددوا في ذلك فلم يجرعوا على تفسير شيء من القرآن، ولم يبيحوا لغيرهم، وقالوا: لا يجوز لأحد تفسير شيء من القرآن وإن كان عالماً أدبياً متسعاً في معرفة الأدلة، والفقه، والنحو، والأخبار، والآثار، وإنما له أن ينتهي إلى ما رواه النبي صلى الله عليه وسلم، وعن الذين شهدوا التنزيل من الصحابة رضی الله عنهم، أو عن الذين أخذوا عنهم من التابعين.

المحاضرة الخامسة عشر

تابع أشهر مادون في التفسير بالرأي

لُباب التأويل في معاني التنزيل (للخازن)

* التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير هو علاء الدين، أبو الحسن، علي بن محمد ابن إبراهيم بن عمر بن خليل الشيجي. البغدادي، الشافعي، الصوفي، المعروف بالخازن. اشتهر بذلك لأنه كان خازن كتب خانقاه السميساطية بدمشق. وُلد ببغداد سنة ٦٧٨ هـ (ثمان وسبعين وستمائة من الهجرة)، وسمع بها من ابن الدواليبي، وقدم دمشق فسمع من القاسم ابن مظفر ووزيرة بنت عمر، واشتغل بالعلم كثيراً. قال ابن قاضي شهبه: "كان من أهل العلم، جمع وألف، وحدث ببعض مصنفاته". وقد خَلَفَ رحمه الله كتباً جمة في فنون مختلفة، فمن ذلك: لُباب التأويل في معاني التنزيل، وهو التفسير

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

هذا التفسير اختصره مؤلفه من معالم التنزيل للبعوي، وضم إلى ذلك ما نقله ولخصه من تفاسير من تقدّم عليه، وليس له فيه - كما يقول - سوى النقل والانتخاب، مع حذف الأسانيد وتجنب التطويل والإسهاب.

وهو أكثر من رواية التفسير المأثور إلى حد ما، مَعْنَى بتقرير الأحكام وأدلتها، مملوء بالأخبار التاريخية،

والقصص الإسرائيلى الذى لا يكاد يسلم كثير منه أمام ميزان العلم الصحيح والعقل السليم، وأرى أن أسوق هنا ما قاله الخازن نفسه في مقدمة تفسيره، مبيّناً به طريقته التى سلكها، ومنهج الذى نهجه فيه، وفيها غنى عن كل شئ.

قال رحمه الله تعالى: ولما كان كتاب معالم التنزيل، الذى صنّفه الشيخ الجليل، والحبر النبيل، الإمام العالم محيى السنّة، قدوة الأمة، وإمام الأئمة، مفتى الفرق، ناصر الحديث، ظهير الدين، أبو محمد الحسين ابن مسعود البغوى - قدّس الله روحه، ونور ضريحه - من أجّل المصنفات فى علم التفسير وأعلامها، وأنبأها وأسناها. جامعاً للصحيح من الأقاويل، عارياً عن الشبه والتصحيف والتبديل، محلى بالأحاديث النبوية، مطرزاً بالأحكام الشرعية، موشى بالقصص الغريبة، وأخبار الماضين العجيبة، مُرصعاً بأحسن الإشارات، مخرجاً بأوضح العبارات، مُفرغاً فى قالب الجمال بأفصح مقال، فرحم الله تعالى مُصنّفه وأجزل ثوابه. وجعل الجنة متقلبه ومآبه. لما كان هذا كتاب كما وصفت، أحببت أن أنتخب من غرر فوائده، ودُرر فرائده، وزواهر نصوصه، وجواهر فصوصه، مختصراً جامعاً لمعاني التفسير، ولُباب التأويل والتعبير، حاوياً لخالصة منقوله، متضمناً لنكته وأصوله، مع فوائد نقلتها، وفرائد لخصتها من كتب التفسير المصنّفة، فى سائر علومه المؤلفة، ولم أجعل لنفسى تصرفاً سوى النقل والانتخاب، مجتنباً حد التطويل والإسهاب، وحذفتُ منه الإسناد لأنه أقرب إلى تحصيل المراد، فما أوردتُ فيه من الأحاديث النبوية والأخبار المصطفوية، على تفسير آية أو بيان حكم - فإن الكتاب يُطلب بيانه من السنّة، وعليها مدار الشرع وأحكام الدين - عزوته إلى مخرجه، وبَيَّنْتُ اسم ناقله، وجعلتُ عوض كل اسم حرفاً يُعرف به، ليهون على الطالب طلبه. فما كان من صحيح أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى فعلامته قبل ذكر الصحابي الراوى للحديث (خ). وما كان من صحيح أبي الحسين مسلم ابن الحجاج

النيسابورى فعلامته (م). وما كان مما اتفقا عليه فعلامته (ق). وما كان من كتب السنن، كسنن أبي داود، والترمذى، والنسائى فإنى أذكر اسمه بغير علامة. وما لم أجده فى هذه الكتب ووجدت البغوى قد أخرج به بسند له انفرد به. قلت: روى البغوى بسنده، وما رواه البغوى بإسناد الثعلبى قلت: روى البغوى بإسناد الثعلبى. وما كان فيه من أحاديث زائدة وألفاظ متغيرة فأعتمده، فإنى اجتهدت فى تصحيح ما أخرجته من

الكتب المعتمدة عند العلماء كالجمع بين الصحيحين للحميدى، وكتاب جامع الأصول لابن الأثير الجزرى، ثم إنى عوّضتُ عن حذف الإسناد بشرح غريب الحديث وما يتعلق به. ليكون أكمل فائدة فى هذا الكتاب، وأسهل على الطلاب، وسقته بأبلغ ما قدرتُ عليه من الإيجاز وحسن الترتيب، مع التسهيل والتقريب. وينبغى لكل مؤلف كتاباً فى فن قد سبق

إليه، أن لا يخلو كتابه من خمس فوائد: استنباط شئ إن كان معضلاً. أو جمعه إن كان متفرقاً. أو شرحه إن كان غامضاً. أو حُسْن نظم وتأليف. أو إسقاط حشو وتطويل، وأرجو أن لا يخلو هذا الكتاب عن هذه الخصال التي ذكرت. وسميته: "لباب التأويل في معاني التنزيل".

ثم قدّم الخازن لتفسيره بخمسة فصول - الفصل الأول: في فصل القرآن وتلاوته وتعليمه. الفصل الثاني: في وعيد من قال في القرآن برأيه من غير علم، ووعيد من أوتى القرآن فَنسِيه ولم يتعهده. الفصل الثالث: في جمع القرآن وترتيب نزوله، وفي كونه نزل على سبعة أحرف. الفصل الرابع: في كون القرآن نزل على سبعة أحرف وما قيل في ذلك. الفصل الخامس: في معنى التفسير والتأويل. ثم ابتدأ بعد ذلك في التفسير.

* توسعه في ذكر الإسرائيليات:

وقد قرأت في هذا التفسير كثيراً فوجدته يتوسع في ذكر القصص الإسرائيلى وكثيراً ما ينقل ما جاء من ذلك عن بعض التفاسير التي تعنى بهذه الناحية كتفسير الثعلبي وغيره، وهو في الغالب لا يُعَقَّب على ما يذكر من القصص الإسرائيلى، ولا ينظر إليه بعين الناقد البصير، وإن كان في بعض المواضع لا يترك القصة تمر بدون أن يُبين لنا ضعفها أو كذبها، ولكن على ندره.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في سورة [ص]: {وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ} {الآيات إلى قوله تعالى: {وَوَظَنُّ دَاوُودَ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ} [٢١-٢٤] نراه يسوق قصصاً أشبه ما يكون بالخرافة كقصة الشيطان الذي تمثّل لداود في صورة حمامة من ذهب فيها من كل لون حسن، وجناحها من الدرّ والزبرجد، فطارت ثم وقعت بين رجليه وأهته عن صلاته، وقصة المرأة التي وقع بصره عليها فأعجبه جمالها فاحتال على زوجها حتى قُتل رجاء أن تسلم له هذه المرأة التي فُتِنَ بها وشُغِفَ بحبها، وغير ذلك من الروايات العجيبة الغربية،

ولكنه يأتي بعد كل هذا فيقول: "فصل في تنزيه داود عليه الصلاة والسلام عما لا يليق به ويُنسب

إليه" ويُفند في هذا الفصل كل ما ذكره مما يتنافى مع عصمة نبي الله داود عليه السلام.

ولكننا نرى الخازن يمر بقصص كثيرة لا يُعَقَّب عليها، مع أن بعضها غاية في الغرابة، وبعضها مما يخل بمقام النبوة.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية [١٠] من سورة الكهف: {إِذْ أَوَى الْفِتْيَةَ إِلَى الْكَهْفِ} .. الآية، نراه يذكر قصة أصحاب الكهف، وسبب خروجهم إليه عن محمد بن إسحاق ومحمد بن يسار، وهي غاية في الطول والغرابة ومع ذلك فهو يذكرها ولا يُعَقَّب عليها بلفظ واحد.

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآيتين [٨٣، ٨٤] من سورة الأنبياء: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} * فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضرٍّ وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمةً من عندنا عنايته بالأخبار التاريخية:

كذلك نلاحظ على هذا التفسير أنه يفيض في ذكر الغزوات التي كانت على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأشار إليها القرآن.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية [٩] من سورة الأحزاب: {يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً} نراه بعد أن يفرغ من التفسير يقول: "ذكر غزوة الخندق وهي الأحزاب" ثم يذكر وقائع الغزوة وما جرى فيها باستفاضة وتوسع.

وذكرى لِلْعَابِدِينَ} .. نراه يروى في حق أيوب عليه السلام، قصة طويلة جداً عن وهب بن منبّه، وهي مما لا يكاد يقرها الشرع أو يُصدِّقها العقل، لما فيها من المنافاة لمقام النبوة، ومع ذلك، فهو يذكر هذه القصة ويمر عليها بدون أن يُعَقَّب عليها بأية كلمة. ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية [٢٧] من سورة الأحزاب أيضاً: {وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَبَيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَّوُّهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً} .. نراه يستطرد إلى ذكر غزوة بني قريظة، بتوسع ظاهر، وتفصيل تام.

* عنايته بالناحية الفقهية:

كذلك نجد هذا التفسير يعنى جد العناية بالناحية الفقهية، فإذا تكلم

عن آية من آيات الأحكام، استنطرد إلى مذاهب الفقهاء وأدلتهم، وأقحم في التفسير فروعاً فقهية كثيرة، قد لا تهم المفسر بوصف كونه مفسراً في قليل ولا كثير.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٢٢٦) من سورة البقرة: {الَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نَّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} نراه بعد أن ينتهي من التفسير يقول: "فروع تتعلق بحكم الآية" ثم يذكر خمسة فروع - الفرع الأول: في حكم ما إذا حلف أنه لا يقرب زوجته أبداً أو مدة هي أكثر من أربعة أشهر، والثاني: في حكم ما لو حلف ألا يطأها أقل من أربعة أشهر، والثالث: في حكم ما لو حلف ألا يطأها أربعة أشهر، والرابع: في مدة الإيلاء في حق الحر والعبد واختلاف المذاهب في ذلك، والخامس: فيما إذا خرج من الإيلاء بالوطء، فهل تجب عليه كفارة أو لا تجب.

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية [٢٢٨] من سورة البقرة: {والمطلقات يتربصن بأنفسهنّ ثلاثة قرواء} .. الآية، نراه يعرض لمذهب الحنفية ومذهب الشافعية فيما تنقضى به عدّة الحائض.. ثم يقول: "فصل في أحكام العدة، وفيه مسائل" فيذكر أربع مسائل، يتكلم في المسألة الأولى منها: عن عدّة الحوامل، وفي الثانية: عن عدّة المتوفى عنها زوجها، وفي

الثالثة: عن عدّة المطلقة المدخول بها، وفي الرابعة: عن عدّة الإماء..

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية [٢٢٩] من سورة البقرة: {فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ} .. الآية، نجده يقول: "فصل في حكم الخلع، وفيه مسائل" ويذكر ثلاث مسائل؛ المسألة الأولى: فيما يباح من أجله الخلع، والثانية: في جواز الخلع بأكثر مما أعطاه وعدم جوازه، الثالثة: في اختلاف العلماء في الخلع هل هو فسخ أو طلاق؟

عنايته بالمواعظ:

ثم إن هذا التفسير كثيراً ما يتعرض للمواعظ والرقاق، ويسوق أحاديث الترغيب والترهيب، ولعل نزعة الخازن الصوفية هي التي أثرت فيه فجعلته يعنى بهذه الناحية ويستنطرد إليها عند المناسبات.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية [١٦] من سورة السجدة: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ} .. الآية؛ نراه يقول بعد الانتهاء من التفسير: "فصل في فضل

قيام الليل والحث عليه" .. ثم يسوق في ذلك أحاديث كثيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم كلها تدور على البخارى ومسلم والترمذى.

وهكذا نجد هذا التفسير يطرق موضوعات كثيرة في نواح من العلم مختلفة. ولكن شهرته القصصية، وسُمعته الإسرائيلية، أساءت إليه كثيراً، وكادت تصد الناس عن الرجوع إليه والتعويل عليه!! ولعل الله يهيئ لهذا الكتاب مَنْ يُعَلِّق عليه بتعليقات توضح غنّه مِنْ سَمِينِهِ، وتستخلص صحيحه مِنْ سَقِيمِهِ. والكتاب مطبوع في سبعة أجزاء متوسطة الحجم، وهو متداول بين الناس، خصوصاً مَنْ له شغف بالقصص ولوع بالأخبار.

البحر المحيط (لأبى حيان)

* التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير هو أثير الدين، أبو عبد الله، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان، الأندلسي، الغرناطي، الحَيَّانِي، الشهير بأبى حَيَّان، المولود سنة ٦٥٤ هـ (أربع وخمسين وستمائة من الهجرة) .

كان - رحمه الله - مُلمّاً بالقراءات صحيحها وشاذها، قرأ القرآن على الخطيب عبد الحق بن عليّ إفراداً وجمعاً، ثم على الخطيب أبي جعفر ابن الطباع، ثم على الحافظ أبي عليّ بن أبي الأحوص بمالقة، وسمع الكثير من العلماء ببلاد الأندلس وإفريقية، ثم قَدِمَ الإسكندرية فقرأ القراءات على عبد النصير بن عليّ المريوطي، وبمصر على أبي طاهر إسماعيل بن عبد الله المليجي، ولازم بها الشيخ بهاء الدين بن النحاس، فسمع عليه كثيراً من كتب الأدب. قال أبو حيان: "وعدة مَنْ أخذتْ عنه أربعمائة وخمسون شخصاً، وأما مَنْ أجازتني فكثير جداً" وقال الصفدي: "لم أره قط إلا يسمع، أو يشتغل، أو يكتب، أو ينظر في كتاب، ولم أره على غير ذلك".

كذلك عُرف أبو حيان، بكثرة نظمه للأشعار والموشحات، كما كان على جانب كبير من المعرفة باللغة، أما النحو والتصريف فهو الإمام المطلق فيهما، خدم هذا الفن أكثر عمره، حتى صار لا يُذكر أحد في أقطار الأرض فيهما غيره، وبجانب هذا كله كان لأبي حيان اليد الطولى في التفسير، والحديث، وتراجم الرجال، ومعرفة طبقاتهم، خصوصاً المغاربة.

ولقد أخذ كثير عنه العلم حتى صار من تلامذته أئمة وأشياخ في حياته، وهو الذي جَسَرَ الناس على كتب ابن مالك ورَغَبَتهم فيها وشرح لهم غامضها. وأما مؤلفاته فكثيرة، انتشرت في حياته وبعد وفاته في كثير من أقطار الأرض وتلقاها الناس

بالقبول، ومن أهمها: تفسير البحر المحيط الذي نحن بصدده الآن، وغريب القرآن في مجلد واحد، وشرح التسهيل، ونهاية الإعراب، وخلاصة البيان، وله منظومة على وزن الشاطبية في القراءات بغير رموز، وهي أخصر وأكثر فوائد، ولكنها لم تُرْزَق من القبول حظ الشاطبية هذا، وقد قيل: إن أبا حيان كان ظاهري المذهب، ثم رجع عنه وتبع الشافعي على مذهبه، وكان عرياً من الفلسفة، بريئاً من الاعتزال والتجسيم، متمسكاً بطريقة السلف. أما وفاته فكانت بمصر سنة ٧٤٥ هـ (خمسة وأربعين وسبعمائة من الهجرة)، فرحمه الله ورضى عنه.

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

يقع هذا التفسير في ثمان مجلدات كبار، وهو مطبوع ومتداول بين أهل العلم. ومعتبر عندهم المرجع الأول والأهم لمن يريد أن يقف على وجوه الإعراب الألفاظ القرآن الكريم، إذ أن الناحية النحوية هي أبرز ما فيه من البحوث التي تدور حول آيات الكتاب العزيز، والمؤلف إذ يتكلم عن هذه الناحية، فهو ابن بجدتها، وفارس حلبتها، غير أنه - والحق يقال - قد أكثر من مسائل النحو في كتابه، مع توسعه في مسائل الخلاف بين النحويين، حتى أصبح الكتاب أقرب ما يكون إلى كتب النحو منه إلى كتب التفسير.

هذا.. وإن أبا حيان وإن غلبت عليه الصناعة النحوية في تفسيره إلا أنه مع ذلك لم يُهمل ما عداها من النواحي التي لها اتصال بالتفسير، فنراه يتكلم على المعاني اللغوية للمفردات، ويذكر أسباب النزول التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

يقع هذا التفسير في ثمان مجلدات كبار، وهو مطبوع ومتداول بين أهل العلم. ومعتبر عندهم المرجع الأول والأهم لمن يريد أن يقف على وجوه الإعراب الألفاظ القرآن الكريم، إذ أن الناحية النحوية هي أبرز ما فيه من البحوث التي تدور حول آيات الكتاب العزيز، والمؤلف إذ يتكلم عن هذه الناحية، فهو ابن بجدتها، وفارس حلبتها، غير أنه - والحق يقال - قد أكثر من مسائل النحو في كتابه، مع توسعه في مسائل الخلاف بين النحويين، حتى أصبح الكتاب أقرب ما يكون إلى كتب النحو منه إلى كتب التفسير.

هذا.. وإن أبا حيان وإن غلبت عليه الصناعة النحوية في تفسيره إلا أنه مع ذلك لم يُهمل ما عداها من النواحي التي لها اتصال بالتفسير، فنراه يتكلم على المعاني اللغوية على جليها وخفيها، بحيث أنى لا أغادر منها كلمة وإن اشتهرت حتى أتكلم عليها، مبدياً ما فيها من غوامض الإعراب، ودقائق الآداب، من بديع وبيان، مجتهداً أنى لا أكرر الكلام في لفظ سبق، ولا في جملة تقدّم الكلام عليها، ولا في آية فسّرت، بل أذكر في كثير منها الحوالة على الموضع الذي تُكلم فيه على تلك اللفظة أو الجملة أو الآية، وإن عرض تكرير فبمزيد فائدة، ناقلاً أقويل الفقهاء الأربعة وغيرهم في الأحكام

الشرعية مما فيه تعلق باللفظ القرآني، مُحيلاً على الدلائل التي في كتب الفقه، وكذلك ما نذكره من القواعد النحوية أحيل في تقريرها والاستدلال عليها على كتب النحو، وربما أذكر الدليل إذا كان الحكم قريباً أو خلاف مشهور ما قال معظم الناس، بادئاً بمقتضى الدليل وما دلَّ عليه ظاهر اللفظ مرَّحاً له لذلك، ما لم يصد عن الظاهر ما يجب إخراج به عنه منتكباً في الإعراب عن الوجوه التي تنزه القرآن عنها، مبيِّناً أنها مما يجب أن يُعدل عنه، وأنه ينبغي أن يُحمل على أحسن إعراب وأحسن تركيب، إذ كلام الله تعالى أفصح الكلام، فلا يجوز فيه جميع ما يُجوزُه النحاة في شعر الشماخ والطرماح وغيرهما من سلوك التقادير البعيدة، والتراكيب الفلقة، والمجازات المعقَّدة، ثم أختتم في جملة من الآيات التي فسَّرْتُها إفراداً وتركيباً بما ذكروا فيها من علم البيان والبدیع ملخصاً، ثم أتبع آخر الآيات بكلام منثور، أشرح به مضمون تلك الآيات على ما أختاره من تلك المعاني، ملخصاً جملها أحسن تلخيص، وقد ينجر معها ذكر معان لم

نتقدم في التفسير، وصار ذلك أنموذجاً لمن يريد أن يسلك ذلك فيما بقي من سائر القرآن، وستقف على هذا المنهج الذي سلكته إن شاء الله تعالى، وربما ألممت بشئ من كلام الصوفية بما فيه بعض مناسبة لمدلول اللفظ، وتجنبت كثيراً من أقويلهم ومعانيهم التي يُحمَلونها الألفاظ وتركت أقوال الملحدین الباطنية، المخرجين الألفاظ العربية عن مدلولاتها في اللغة، إلى هذيان افتروه على الله، وعلى عليٍّ كرم الله تعالى وجهه، وعلى ذُرِّيَّته، ويسمونه علم التأويل

هذا.. وإن أبا حيان - رحمه الله تعالى - ينقل في تفسيره كثيراً من تفسير الزمخشري، وتفسير ابن عطية، خصوصاً ما كان من مسائل النحو ووجوه الإعراب، كما أنه يتعقبهما كثيراً بالرد والتنفيذ لما قالاه في مسائل النحو على الخصوص،

ولكثره هذا التعقيب منه على كلام الزمخشري وابن عطية تجد تلميذه تاج الدين أحمد بن عبد القادر (بن أحمد) بن مكتوم المتوفى سنة ٧٤٩ هـ (تسع وأربعين وسبعمائة من الهجرة) يختصر هذا التفسير في كتاب سماه: "الدَّرُّ اللقيط من البحر المحيط" يكاد يقتصر فيه على مباحثه مع ابن عطية والزمخشري ورده عليها وهذا المختصر تُوجد منه نسخة مخطوطة بمكتبة الأزهر، كما أنه مطبوع على هامش البحر المحيط.

كذلك نجد الشيخ يحيى الشاوي المغربي يفرد مؤلفاً عنوانه: "بين أبي حيان والزمخشري" يجمع فيه اعتراضات أبي حيان على الزمخشري وهو مخطوط في مجلد كبير بالمكتبة الأزهرية.

وكثيراً ما يحمل أبو حيان على الزمخشري حملات ساخرة قاسية من أجل آرائه الاعتزالية (ج٢ ص٢٧٦، ج٧ ص٨٥)، ومع ذلك نجده يشيد بما للزمخشري من مهارة فائقة في تجلية بلاغة القرآن وقوة بيانه. حيث يصفه بأنه أوتي من علم القرآن أوفر حظ، وجمع بين اختراع المعنى وبراعة اللفظ (ج٧).

هذا.. وإن أبا حيان يعتمد في أكثر نقول كتابه هذا - كما يقول - "على كتاب التحرير والتحبير لأقوال أئمة التفسير، من جمع شيخه الصالح، القدوة، الأديب، جمال الدين أبي عبد الله، محمد بن سليمان بن حسن ابن حسين المقدسي، المعروف بابن النقيب، رحمه الله. إذ هو أكبر كتاب صنَّف في علم التفسير، يبلغ في العدد مائة سفْرٍ أو يكاد".

ونهاية القول، فإن أبا حيان قد غلبت عليه في تفسيره الناحية التي برز فيها وبرع فيها وهي الناحية النحوية التي طغت على ما عداها من نواحي التفسير.

تفسير الجلالين لـ (جلال الدين المحلّي) و (جلال الدين السيوطي)

* التعريف بمؤلفي هذا التفسير:

ألف هذا التفسير الإمامان الجليلان، جلال الدين المحلّي، وجلال الدين السيوطي. أما جلال الدين السيوطي، فقد سبق التعريف به عند الكلام عن تفسيره المسمى بالدَّرُّ المنثور.

وأما جلال الدين المحلّي، فهو جلال الدين، محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم المحلّي الشافعي، تفتازاني العرب، الإمام العلامة. قال في حسن المحاضرة: "ولد بمصر سنة ٧٩١ هـ (إحدى وتسعين وسبعمائة)، واشتغل وبرع في الفنون فقهاً، وكلاماً، وأصولاً، ونحواً، ومنطقاً، وغيرها. وأخذ من البدر محمود الأقصراني، والبرهان البيجوري،

والشمس البساطى، والعلاء البخارى، وغيرهم، وكان علامة آية فى الذكاء والفهم، حتى كان بعض أهل عصره يقول فيه: إن ذهنه يثقب الماس، وكان يقول عن نفسه: إن فهمه لا يقبل الخطأ، ولم يك يقدر على الحفظ".

وكان غرّة عصره فى سلوك طريق السلف، على مبلغ عظيم من الصلاح والورع، أمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، لا تأخذه فى الحق لومه لائم، فكان يواجه بالحق أكبر الظلمة والحكام، وكانوا يأتون إليه فلا يلتفت إليهم، ولا يأذن لهم فى الدخول عليه، وكان حديد الطبع لا يراعى أحداً فى القول، وقد عُرِض عليه القضاء الأكبر فلم يقبله، وولى تدريس الفقه بالمؤيدية والبرقوقية، وسمع من جماعة، وكان مع هذا منقشفاً فى معيشته يتكسب بالتجارة، وقد ألف كتباً كثيرة تُشَدُّ إليها الرِّحال، وهى غاية فى الاختصار، والتحرير والتنقيح، وسلامة العبارة وحسن المزج والحل، وقد أقبل الناس على مؤلفاته وتلقوها بالقبول، وتداولوها فى دراساتهم، فمن مؤلفاته: شرح جمع الجوامع فى الأصول، وشرح المنهاج فى فقه الشافعية، وشرح الورقات فى الأصول، ومنها هذا التفسير الذى نحن بصدد.

توفى - رحمه الله - فى أول يوم من سنة ٨٦٤ هـ (أربع وستين وثمانمائة من الهجرة) .

* التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفيه فيه:

اشترك فى هذا التفسير - كما قلنا - الإمامان الجليلان، جلال الدين المحلى، وجلال الدين السيوطى.

أما جلال الدين المحلى، فقد ابتداء تفسيره من أول سورة الكهف إلى آخر سورة الناس، ثم ابتداء بتفسير الفاتحة، وبعد أن أتمها اخترمته المنية فلم يُفسّر ما بعدها.

وأما جلال الدين السيوطى - فقد جاء بعد الجلال المحلى فكمّل تفسيره، فابتداء بتفسير سورة البقرة، وانتهى عند آخر سورة الإسراء، ووضع تفسير الفاتحة فى آخر تفسير الجلال المحلى لتكون ملحقة به.

هذا هو الواقع. ولا أظن صاحب كشف الظنون مصيباً حيث يقول عند الكلام على تفسير الجلالين ما نصه: "تفسير الجلالين من أوله إلى آخر سورة الإسراء للعلامة جلال الدين محمد بن أحمد المحلى الشافعى المتوفى سنة ٨٦٤ هـ (أربع وستين وثمانمائة)، ولما مات كملّه الشيخ المتبحر جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ (إحدى عشرة وتسعمائة) .. وحيث يقول بعد ذلك بقليل: "وكان المحلى لم يُفسّر الفاتحة، وفسّرّها السيوطى تفسيراً مناسباً".

نعم.. لا أظن صاحب كشف الظنون مصيباً فى ذلك، لأن السيوطى - فى مقدمة هذا التفسير وقبل الكلام على سورة البقرة - يقول بعد الديباجة ما نصه: "هذا ما اشتدت إليه حاجة الراغبين فى تكملة تفسير القرآن الكريم، الذى ألفه الإمام المحقق، جلال الدين أحمد، المحلى الشافعى رحمه الله، وتتميم ما فاتته وهو - يريد ما فات الجلال المحلى وقام هو بتفسيره - من أول سورة البقرة إلى آخر سورة الإسراء".

ويقول فى آخر سورة الإسراء ما نصه: "قال مؤلفه: هذا آخر ما كملتُ به تفسير القرآن الكريم، الذى ألفه الشيخ الإمام، العالم العلامة المحقق، جلال الدين المحلى الشافعى رضى الله عنه".

هذا هو ناحية تعيين القدر الذى فسّره كل منهما. وأما من الناحية الأخرى وهى ادعاء صاحب كشف الظنون أن المحلى لم يُفسّر الفاتحة، وإنما الذى فسّرها هو السيوطى، فهى أيضاً دعوى يظهر لنا أنها غير صحيحة وذلك لما يقوله الشيخ سليمان الجمل فى مقدمة حاشيته على هذا التفسير (ج ١ ص ٧) : "وأما الفاتحة ففسّرها المحلى، فجعلها السيوطى فى آخر تفسير المحلى لتكون منضمة لتفسيره، وابتداء هو من أول سورة البقرة".

ولقوله فى الحاشية نفسها (ج ٤ ص ٦٢٦) عند نهاية ما كتبه على تفسير سورة الفاتحة: "إنه - أى الجلال المحلى - كان قد شرع فى تفسير النصف الأول، وأنه ابتداءً بالفاتحة، وأنه اخترمته المنية بعد الفراغ وقبل الشروع فى البقرة وما بعدها".

هذا.. وقد قال صاحب كشف الظنون بعد ما نقلناه عنه أنفاً بقليل: "ولم يتكلم الشيخان على البسمة، فتكلم عليها بأقل مما ينبغي من الكلام بعض العلماء من زبيد وكتب ذلك حاشية بالهامش، وهذا صحيح، فإن الجلال المحلى لم يتكلم عن تفسير البسمة مطلقاً في الجزء الذى فسره، لا فى أول سورة الكهف، ولا فى أول فاتحة الكتاب، كذلك الجلال السيوطى، لم يتكلم عن تفسيرها مطلقاً فى الجزء الذى فسره.

وبعد هذا.. فالجلال المحلى، فسّر الجزء الذى فسره بعبارة موجزة محررة، فى غاية الحسن ونهاية الدقة. والجلال السيوطى تابعه على

ذلك ولم يتوسع؛ لأنه التزم بأن يتم الكتاب على النمط الذى جرى عليه الجلال المحلى، كما أوضح هو ذلك فى مقدمته، وذكر فى خاتمة سورة الإسراء أنه أَلَّفَ الجزء الذى أَلَّفَه فى قدر ميعاد الكليم، وهو أربعون يوماً، كما ذكر فى هذا الموضوع نفسه: أنه استفاد فى تفسيره من تفسير الجلال المحلى، وأنه اعتمد عليه فى الآى المتشابهة، كما أنه اعترف - جازماً - بأن الذى وضعه الجلال المحلى فى قطعه أحسن مما وضعه هو بطبقات كثيرة".